شخصية المسلم
كما يصورها القرآن الكريم

تأليف
الدكتور مصطفى عبد الواحد

عني بنشره وطبعه
خادم العلم
عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

طبع على نفقة
إدارة الشؤون الدينية
بدولة قطر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الرابعة

نحمدك اللهم ونستعينك ونستغفرك ونستهديك ونؤمن بك ونتوكل عليك ، ونصلي ونسلم على رسولك سيد الخلق أَجمعين ، والذي خصصته بالخُلق العظيم ، فكان صلى الله عليه وسلم أَجود الناس خُلقاً وخَلقاً ، وخير الناس سيرة وسريرة ، ولذلك انتقاه الله من بين ولد آدم ، وهو خيار من خيار من خيار ، وخصه بالرسالة وتلقي كتابه العزيز ، ليكون للعالمين نذيراً ، اللهم صل وسلم عليه صلاة دائمة مستمرة إلى يوم الميعاد ، وارض اللهم عن الخلفاء الراشدين والصحابة ، أَجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد :

فإن الإنسان يسعد في حياته باتباع الحق ، ونبذ الباطل والسير على الجادة المستقيمة ، وعلى نهج رسول الإسلام وأَصحابه وأَتباعه المقتدين به في كل مراحل

حياتهم ، والإسلام يفند الشخص بحسن سيره وسلوكه ومثابرته على صالح الأَعمال وجليل الفعال وهنالك تبرز شخصية المسلم فيما قدمه من عمل ومأْثرة وخلال حميدة ، وليست شخصية المسلم في كثرة الأَموال والتجارات ولا في الشهادات العالية الدنيوية ، ولا في الفخر بالأَنساب ، وانما تبرز شخصية المسلم في أَفعاله وأَقواله وأَعماله ومآثره الصالحة التي يتركها بين يدي أُمته ، ولقد نوه النبي صلى الله عليه وسلم بهذا المعنى حينما قال :

(إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، وعلم ينتفع به ، وولد صالح يدعو له).

وهنا يشير نبي الإسـلام إلى التأْكيد لحسن التربية والتوجيه للأَولاد والشباب إذ أَن الإنسان مسؤول أَمام الله تعالى عن هذه الأَمانة أَلا وهي أَمانة تربية الأَجيال ويكمن معنى ذلك في قول النبي صلى الله عليه وسلم: (أَلا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) ولقد تصفحت بعض الكتب المستهدفة للأَخلاق والفضائل التي يزدان بها الإنسان وعند وقوفي على هذا الكتاب المبارك (شخصية المسلم كما يصورها القرآن) والذي قام بتأْليفه الأَخ

الفاضل الدكتور مصطفى عبد الواحد ، فوجدته نعم العون ونعم المرشد للسلوك الصالح وللسجايا الحميدة التي ترفع مقام الإنسان إلى ذروة السعادة والمجد والشرف فلقد صور حفظه الله المسلم في صورة عالية ، وكيف يجب أن يستدرك ساعات حياته ، وكيف يسير على طريق الكرامة والسلامة والعفة والأمانة ونيل السعادة في الدنيا والآخرة ، وقد اطلعت عليه في طبعته الثانية ثم في طبعته الثالثة التي قام بطبعها سمو الأخ الفاضل الشيخ فهد بن علي آل ثاني من الأسرة الحاكمة بدولة قطر وعندما رأيت هتاف الطالبين لنيل هذا الكتاب ، ورغبة الساعين لإدراك هذا السفر استخرت الله تعالى في إعادة طبعه وهذه هي الطبعة الرابعة له .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجزل الأجر والثواب لمؤلفه وللقائمين بطبعه ونشره في كل مرة وأن يهدينا جميعاً إلى سواء السبيل ويوفقنا لنيل الخصال السامية العالية لندخل في سلك من أدرك الشخصية المطلوبة للمسلم العامل المتبع .

وختاماً أَعود فأَبتهل إلى الله بأَن يوفقنا جميعاً لما يحبه ويرضاه ، والله ولي التوفيق وصلى الله على نبينا وسيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

خادم العلم

عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

الدوحة – قطر

غرة شعبان ١٤٠١هـ

٣ حزيران ١٩٨١م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

صدرت الطبعة الأُولى لهذا الكتاب منذ سنوات . وقد كان الهدف منه كما أَوضحت في مقدمته أَن يرسم صورة صادقة - رغم إيجازها - لعناصر الشخصية الإسلامية في مجالاتها الثلاث : العقيدة والعبادة والخلق ، مستقاة من منابعها الأَصيلة من كتاب الله وسنة رسوله .

وقد كان الإيجاز والتركيز مقصوداً في هذه الرسالة لأَني لم أَرد بها تحليلاً يستقصي المعاني ويحيط بالتفاصيل ، ولكني أَردت أَن أُحدد فيها إطاراً يضع فيه المسلم ويدرك مقومات وجوده ، مع إشارات موجزة للمعاني الكلية والأُصول الواضحة لاتجاهات الإسلام ومناهجه .

والحق أَقول إن كل عنصر منها يحتاج وحده إلى بحث طويل وتحليل دقيق ، وفي كل منها صدرت كتب كثيرة ولاتزال ، ولكني مازلت أَرى حاجة المسلم إلى أَن يرى هذه العناصر مجتمعة وأَن يعرف أُصولها من

الكتاب والسنة ، دون إغراق في الشرح أو استفاضة في البيان .

وقد كنت عقدت العزم على أن أعيد صياغة هذا الكتاب في طبعته الثانية ، في صورة أقرب إلى التحليل لحاجات المتعمقين الذين يميلون إلى المقارنة والمناقشة والتعقيد ، ولكن رغبة كثير من الأخوة في التعجيل بطبعه جعلتني أقنع بطبعه كما كان ، لينتفع به المسلم ويتذكر به أصول دينه التي يجب أن تتضح في تكوينه وتميزه عن غيره ، على أمل أن أتمكن يوماً من رسم صورة عميقة ترضي الخاصة ولا تبعد على غيرهم أما هذه الصورة فلتكن ذكرى ، والذكرى تنفع المؤمنين .

والله يكتب لدينه النصر ولأمته العزة والتوفيق ، إنه نعم المولى ونعم النصير ،

مصطفى عبد الواحد
دكتوراه في الأدب والنقد

القاهرة — شوال سنة ١٣٨٩
ديسمبر سنة ١٩٦٨

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

كانت البعثة المحمدية نقطة تحول في تاريخ الإنسانية ، فغيرت المناهج وبدلت النظم ، ومضت بالناس إلى طريق مستقيم .

فهي رسالة إنسانية ربانية ، عالمية ، ترفض العنصرية ، وتقضي على العصبية ، وتجعل التفاضل بين الناس بالتقوى .

إن حامل أكرم رسالات الله جاء يدعو البشرية كلها إلى الرشد ، ويأخذ بيدها إلى أعلى الآفاق ، ويرسم لها سبيل الحياة التي تحقق للإنسان الأهداف الحقيقية ، التي من أجلها وهب نعمة الوجود ، واستخلف في هذه الأرض .

واستجابت البشرية لدعوة محمد صلوات الله عليه ، بعد صبر وجهاد ، وكفاح وثبات . . بعد أن دوَّى نداءُ السماءِ في أرجاءِ الأَرض : « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي

رسولُ اللهِ إليكُمْ جَمِيعاً الذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ ورَسولِهِ النبيِّ الْأُميِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ واتَّبِعُوه لَعَلَّكُمْ تَهْتَدونَ» (١).

وأشرقت الأرض بنور ربها ، وعمتها رحمته ، وأظلتها شريعته ، وعاش الناس تحت راية النبوة ، فتبدلت المقاييس والمفاهيم . . وقامت في الدنيا ثورة على الذلة والهوان ، فطارت عروش الظالمين ، وهدمت صروح المفسدين ، وتخلص الإنسان من العبودية للإنسان ، واتسعت آفاق الحياة . .

وقامت على هذا الأساس أعظم حضارة عرفتها الإنسانية . . حضارة حقيقية شملت الناس بالأمن والسلام ، وعمت الأرض بالتقدم والرخاء تحقيقاً لقول الله سبحانه : « ولَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ . . . » (٢) .

* * *

تلك كانت حالة الدنيا منذ انتشر الإسلام في أقطارها

---

(١) سورة الأعراف آية ١٥٨

(٢) سورة الأعراف آية ٩٦

إلى أن اشتد الهجوم عليه في غفلة من أهله ، فتهاوت سواعدهم فلم تستطع أن ترد الغزاة المستعمرين ، وقصرت عقولهم عن الإطاحة بحقيقة دينهم فانصرفوا يائسين .

إن عناصر خبيثة قد عادت الإسلام في القديم والحديث . .

لكن حملة الصليبية والصهيونية كانت أشد حملة وجهت إلى الإسلام والمسلمين .

ولم يكن خطر الاستعمار العسكري الذي تخلصت معظم بلاد الإسلام منه ، يساوي خطر الاستعمار الروحي والثقافي . .

إن خططاً رسمت لإبعاد المسلمين عن دينهم ، وتشويهه في أعينهم ، وتحقير ماضيه في أذهانهم ، فخرجت أجيال تشبعت بالثقافة الأجنبية وآمنت بتصورات خاطئة ، ثم تولت صبغ المجتمع بتلك الصبغة ، وهيمنت على مصادر التوجيه في أنحائه . .

وأخذت مسافة الخلف تتسع بين أحوال المجتمع وبين تعاليم الدين ، وظهرت مشكلات كثيرة في آفاق

الحياة دون أن يعرف الناس لها حلاً من الدين ، أو يعلموا رأيه فيها . .

وظهرت في المجتمع ألوية كثيرة لدعوات شتى ، كلها تهدف إلى انتزاع سلطة التوجيه من الإسلام ، والقضاء على كل أثر له في الحياة . .

وتعرض المسلمون لتيارات عاصفة في الثقافة والتوجيه واشتدت موجات الإلحاد والتحلل . .

وفقد المسلم شخصيته الحقيقية ، وجهل مقوماته الأصيلة وأهدافه في الحياة . .

ومن ثم فقدت الأُسرة المسلمة كيانها الأَصيل وانحلت روابطها التي ميزها بها الإسلام .

ثم سرى الاضطراب من الأُسرة إلى المجتمع . .

والآن تسيطر الحيرة على شبابنا ويملأُ الشك أذهانهم ويتساءلون : ما حقيقة الدين . . ؟ فتختلط في أذهانهم الحقيقة بالخرافة ، وتحول الحوائل دون معرفتهم لدينهم ودون اتباعهم لهداه . .

فهل يحرم الجيل الجديد من الإسلام . .

* * *

ويقيني أن العقبة الكبرى التي تحول بين كثير من المسلمين وبين اتباع المنهج الإسلامي إنما هي الجهل به والقصور عن فهمه . .

فليس هناك صورة صادقة عن الإسلام في أذهان كثير من الناس . .

بل يدور الأمر بين الخرافة والجحود . .

فعامة المسلمين يفهمون الدين على نحو خاطىء ، لا يميز بين الشكل والجوهر ، ولا بين الأصل والفرع ، هؤلاء تتحكم فيهم البيئة والتقاليد ، وتوجههم العادات والخرافات . .

وكثير من خاصة المسلمين من أهل الثقافة والحضارة لم تتح لهم الفرصة لدراسة الإسلام ، ولم يفهموا حقيقته ، بل لا يعلمون عنه إلا ما علمهم أعداء الإسلام من الغربيين والمستشرقين . . !

فإذا كانت هذه هي الحال العامة في مجتمعنا ،

فلا معنى لهذا إلا أن يوماً سيأتي ، لا تتضح فيه حقيقة الإسلام في المجتمع ، ولا يؤثر في الحياة . .

* * *

لكن إذا أردنا أن نؤدي واجبنا ، ونقوم برسالتنا نحو أمتنا ، كي نبصرها بدينها ، ونعرضه عليها عرضاً يغريها به ، ويشدها إليه ، فكيف نبدأ ؟

ذلك هو السؤال الذي طاف بخاطري فترة من الزمن... نعم إن المسلمين يوشك أن يبتعدوا عن الإسلام إن استمر هذا الحال من الجهل به والبعد عنه . فكيف نعلم الإسلام وندعوا إليه ؟

إن حالة الدعوة إلى الدين بين جماهير المسلمين... ولا تزال تنقصها الدراسات ، ولا تزال تنقصها الروح الموجهة . . .

وعسى الله أن يهيىء لها الحياة والنجاح . .

وفي عصرنا هذا صدرت مئات الكتب عن الإسلام وتراثه ، حتى ملَّ الناس كتب الإسلاميات ، وتشابهها العجيب . .

فهل لا زال في ميدان الدعوة متسع لكتاب يصدر ، أو بحث يؤلف ؟ . . نعم لا زال هناك متسع . . ولكنه لا يتسع لكتب الثقافة المجردة ، والبحوث التي لا تهدف إلى شيء . .

فمن الغريب أن بحوثاً رائعة تصدر عن الإسلام ، ولكنها لا تنفع كثيراً من المسلمين !

إن عامة المسلمين ليسوا في حاجة إلى من يحدثهم عن الديمقراطية في الإسلام ، أو عن العلاقات الدولية في الإسلام مثلاً ، بقدر ماهم في حاجة إلى من يحدثهم عن أركان الإسلام المجهولة وفرائضه المضيعة ! ؟ . .

ومن العجيب أن القوى التي تحارب الإيمان تتسع طاقاتها وتنشط جهودها يوماً بعد يوم . . وهي تسير على ضوء بحوث ودراسات ووراءَ أهداف وغايات . .

فهل نَدَعها تحقق أهدافها ، ويسقط الإسلام في المعركة ؟! . .

* * *

ذلك شيء مما جال بخاطري حين فكرت في حالنا وموقفنا من ديننا . .

حتى استقر في نفسي ما ارتحت إليه وسررت به . .

إن طريقنا يجب أن يكون هو الطريق الأول . . طريق الرسول الكريم صلوات الله عليه حين أخذ يربّي « أفراداً مسلمين » ، ومن هؤلاء الأفراد تكونت الأُسر المسلمة ، ومن هذه الأسر نشأ المجتمع المسلم . . وحين انتهيت إلى هذا ، تبين لي طريق الدعوة إلى الدين في هذا العصر . .

إن علينا أن ندعو إلى تكوين الفرد المسلم بمقوماته الأصيلة وروحه الحقيقية التي يجهلها بعض المسلمين ويقصر عن الإحاطة بها كثيرون . .

إن الرسول الكريم صلوات الله عليه حين كان يدعو إلى الإسلام لم يترك الناس هكذا تختلف أفهامهم في الدين ، ويدركونه على أهوائهم ، بل حدد لهم

« أركان الإسلام » تلك التي تبني أساس الشخصية المسلمة ، وتحدد اتجاهها على أساس العقيدة الواضحة والعبادة الراشدة . . ثم لم يكن يترك مناسبة إلا بيّن فيها بعض مقوّمات « المسلم » التي تميز كيانه في الوجود ..

كان يقول مثلا : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (١) » . فيحدد بها ضوابط أخلاق المسلم وسلوكه في الحياة . .

وكان يقول : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً (٢) » .فيحدد بذلك روح الإخاء والتكافل التي لابد أن تشيع بين المؤمنين . . وهكذا . . فالخطوة الأُولى في طريقنا اليوم هي أن نحدد الملامح الحقيقية للمسلم ، ونظهر شخصيته التي يكوّنها الإسلام ، ولا نترك المسلمين على جهلهم وأهوائهم ، فتضيع بذلك حقيقة الإسلام في المجتمع . .

* * *

---

(١) رواه البخاري ومسلم .   (٢) رواه الخمسة .

صح عزمي على أن أعرض ديننا بهذا الأُسلوب العلمي في حلقات ثلاث : الشخصية المسلمة ـ الأُسرة المسلمة ـ المجتمع المسلم .

فالمسلمون في هذا الزمان لا يريدون إلا أن يتعلموا كيف يكونون مسلمين حقاً . . لا يريدون بحوثاً هائمة في آفاقها ، ولا ثقافة مترفة ، تكتب من الأبراج العاجية ، حتى ممن لا يؤمنون بالإسلام !

صح عزمي على هذا ، فلست أرجو إلا توفيق الله . .

وأنا اليوم أُقدم صورة حقيقية عن شخصية المسلم ، مستمدة من كتاب الله عز وجل ، ومن حديث رسوله صلوات الله عليه ، ومن الفهم المخلص لروح الإسلام . .

وقد راعيت فيها أن أُبسط حقائق الإسلام ، وأعرضها بالأُسلوب الذي يتفاهم به الناس . .

وأملي أن يجد فيها كل مسلم تصويراً موجزاً لطبيعة المسلم ، وتعبيراً عن حقيقة الإسلام ، يحمله على اتباعه ، ويربطه به ، ويعصمه من حملات الملحدين ، في هذا

الزمان الذي كثر فيه المارقون ، وغلب فيه من طال عليهم الأمد فقسمت قلوبهم وكثير منهم فاسقون . .

وحسبي أن في هذا عوناً على نصرة الحق ورفع لوائه ، في عصر تعددت فيه الألوية وكثرت الدعوات . . ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوي عزيز .

مصطفى عبد الواحد

القاهرة — رمضان سنة ١٣٧٩
أبريل سنة ١٩٦٠

أساس البنَاء: العقيْدَة

العقيدة الصحيحة في الله والكون والحياة هي أساس البناء الذي يضعه الإسلام لتكوين المسلم ، وهي القوة الدافعة للحياة كما يراها الإسلام . .

ومنها يستمد المسلم طاقته وبها يحدد طريقه ويبلغ غايته ، ومن هنا كان اهتمام الإسلام بقوتها في نفوس أبنائه ، فلا يرضى بها ضوءاً خافتاً أو صوتاً مهموساً ، ولكنه يريدها جذوة مُتَّقدةً وضياءاً يغمر الآفاق ، حتى توجّه السلوك وتسيطر على المشاعر وتؤسّس الواقع الكريم الذي يريده الإسلام للحياة . .

يميّز المسلم بتلك العقيدة ارتفاعه عن حدود المادة الضيقة ، بحيث يرى الكون كله وحدة لاتنفصم ، فيؤمن بما لا يراه مما أخبره به خالقه العظيم ، كما يؤمن بما يراه ، فيصبح عالم الغيب عنده كعالم الشهادة ، وتنفسح طاقته الروحية ويسمو فكره عن حدود الحواس الضئيلة التي لا تدرك من حقائق الكون إلا القليل .

وهذه العقيدة من الخطر في البناء الإسلامي ، بحيث

استغرقت الدعوة إليها في فجر الإسلام ثلاثة عشر عاماً ، حتى ثبتت جذورها وتأكدت حقائقها ، وبعد ذلك تملكت زمام النشاط الإنساني وقادت الحياة

وهذه العقيدة هي التي تتعرض اليوم لحرب الجاحدين الذين يرون فيها عقبة أمام أطماعهم وحصناً منيعاً يعوق تخريبهم ، بعد أن رأوا استعصام الأمة الاسلامية بها ولجوءها إليها في مواطن الخطر .

من هنا فإن على الأمة الإسلامية أن تحمي العقيدة كما تحمي الأرض بل أشد ، فهي الكيان والبقاء .

مؤمن بالله

الأساس الأول الذي يقوم عليه بناء شخصية المسلم إيمانه بأن للكون خالقاً تفرد بصفات الكمال وتنزه عن مشابهة خلقه في ذاته وصفاته . .

وتلك العقيدة هي مفرق الطريق الذي يميز بين المسلم وغيره ، وعليها يتوقف عمله ويتحدد اتجاهه . .

« يَأَيُّها النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، هَل مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يرزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْض لا إلَهَ إلا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكونَ » (١) .

ومن العجيب أن الإنسانية في عصرنا هذا ارتقت أمداً بعيداً في آفاق الحضارة والمدنية ، ولكنها لم تقرن هذا التقدم المادي بتقدم روحي ، يريها حقائق الوجود ، ويفتح أمامها أسرار الحياة . .

فما نزال نسمع كلمات الإلحاد يرددها من يدعون الفكر والعلم ، ولا يعلمون أن الكفر بالله أحط درجات

---

(١) سورة فاطر آية ٣ ، وتؤفكون ، أي : تصرفون عن الحق .

الجهل ، وأخطر أنواع العمى والضلال ، كما يقول الله سبحانه : « ومِنَ الناسِ مَنْ يُجادِلُ في الله بِغَيْرِ عِلْم ويتَّبعُ كلَّ شَيطانٍ مَريدٍ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاهُ فأَنهُ يُضِلهُ » (١) .

* * *

والمسلم يعلم أن إثبات وجود الله وخَلقه لهذا الكون ليس صعباً على العقول ولا بعيداً عن فطرة الإنسان وعلمه ، فالإنسان بطبعه يهتدي إلى ربه ما دام سليم الفطرة بريئاً من الأهواء والأغراض . .

« أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوات والأَرْضِ » (٢) .

ولكن عمى البصيرة ، واتباع الهوى والجهالة يحجب الملحدين عن نور الإيمان وطمأنينة اليقين . .

ومن هنا فند القرآن أوهام الجاحدين الذين تتشابه قلوبهم وأقوالهم في كل زمان .

يسأل القرآن الذين يشكُّون في وجود الله ولا يوقنون به ، هذا السؤال الذي يكشف عن حيرتهم وانطماس

---

(١) سورة الحج آية ٣-٤ (٢) سورة إبراهيم آية ١٠

بصائرهم فيقول سبحانه : « أَمْ خُلِقوا مِنْ غيرِ شَيءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَات والأَرْضَ (١) » .

لكن الجاحدين لا يملكون الجواب ، فهم لم يَخلُقوا أنفسهم ولم يَخْلُقوا في الكون ذرَّة واحدة ، وهم كذلك لا يعرفون ربَّهم ولا يؤمنون به : « . . بل لا يوقنون » فيعيشون في ظلام الكفر وحيرة الشك لا يصلون إلى الإيمان ولا يهتدون بنوره . .

* * *

إن المسلم يرى أن نشأة الحياة على هذه الأرض ووجود الإنسان على ظهرها أمر خطير يستحق التفكير والاهتمام ، أما الماديون فيرون أن الحياة تطور طبيعي وأن الإنسان حلقة من حلقات هذا التطور الطبيعي في الخلق ، ولا يؤمنون بالخالق الذي وهب الإنسان نعمة الوجود واستخلفه في هذه الأرض .

وهذا الجحود في حقيقته احتقار لشأن الإنسانية وإزدراء بغاية الحياة ، يؤدي إلى أن ينطلق البشر

(١) سورة الطور آية ٣٥ ، ٣٦

كالسوائم ، لا يعرفون غاية الوجود ولا يذكرون أمانة الحياة ، ولايدركون مبدأ ولا نهاية ؛ ويجعل الحياة مهزلة حقيرة لا حكمة لها ولا غاية .

إن الكون كتاب مفتوح مليء بالمشاهد والدلائل ، التي تربط هذا الوجود المشاهَد بالإله الذي أحسن كل شيء ، خلقه ثم هدى . .

فأي عين تتعامى عن هذا الصنع الباهر والإبداع العجيب ؟ . .

إن مشاهد الطبيعة المنتشرة في هذا الكون أرضه وسمائه ينبغي أن تكون طريقاً يتوصل منه الإنسان إلى معرفة المبدع العظيم .

* * *

وقد لفت القرآن الأنظار إلى دراسة مشاهد الكون ومعرفة دلالتها الناطقة على خالق الحياة وهذا أقرب طريق إلى الإيمان بالله وأصدقه . يقول سبحانه : « قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ . . (١) » « وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ (٢) » . .

(١) سورة يونس آية ١٠١ (٢) سورة الذاريات آية ٢٠ ، ٢١

إن الفطرة السليمة تتوصل من هذا الإبداع إلى المبدع الحكيم ، وتدرك أن الكون يحكمه نظام شامل ، لا مصادفة عمياء ، وقدرة مهيمنة تصرف الأمور بتقدير وحكمة ، وقد أثبتت الكشوف العلمية والبحوث الحديثة هذا النظام الدقيق الذي يشمل الكون ويسيّر الحياة . . كما أثبتت أن كلمة « المصادفة » التي يتشدق بها الجاهلون كلمة لا معنى لها . . فأي « مصادفة » تلك التي أبدعت هذا العالم وخلقت فيه الإنسان ودبرت أموره بترتيب وإحكام ؟!

إن القرآن يعرض لنا حقائق الوجود التي تنفي أوهام الجاهلين ، وأكاذيب الجاحدين . . بما يثبت أن قدرة الله هي التي أنشأت هذا الوجود ، والله وحده الخلاق العليم ، يقول سبحانه :

« اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً

وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيلَ النَّهَارَ إنَّ فِي ذَلِكَ لآيات لِقَوْم يَتَفَكَّرُونَ » (١) .

ولكن أفكار الماديين تغشاها ظلمات الشك ، فلا يؤمنون ولا يعقلون ، والإيمان بحاجة إلى استعداد نفسي يصل الحلقات ويربط بين الظواهر .

وإن أيسر مظاهر هذا الكون ، لتقود النظر السليم إلى الإيمان بخالق الكون والحياة ، وما على الناس إلا أن يفتحوا أعينهم ليروا قدرة ربهم ، فتؤمن به القلوب وتخشع لعظمته . . والقرآن يدعو الإنسان إلى النظر والملاحظة ، والتأمل في ما تقع عليه الأبصار ، كما يقول الله عز وجل : « أَفَلا يَنْظُرُونَ إلى الإبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وإلى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ، وإلى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ، وإلى الأَرْض كَيْفَ سُطِحَتْ » (٢) .

ولكن الجاحدين يفتحون أعيناً عمياً ، فلا يصلون إلى إيمان ، ولا يهتدون ليقين . .

* * *

(١) سورة الرعد آية ٢ ، ٣ (٢) سورة الغاشية ١٧ — ٢٠

والمسلم يعتقد أن الله سبحانه وتعالى لم يترك هذا العالم بعد ما خلقه ، بل لا يزال ـ سبحانه ـ يدبر أمر الكون ويصرف أحواله ، ويرعى عباده ويقبض بزمام الحياة : « لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلىٰ اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ » (١) . . فكيف يشك الكافرون في ربهم ومقاليد أُمورهم في قبضته وكل أَقدارهم تحت سلطانه ؟ « قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ » (٢) .

فهل أَمِن الكافرون انتقامه في الدنيا ، وهل يقدرون على دفع بأْسه وردّ عقابه :

« أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرضَ فإِذا هِيَ تَمُورُ . أَمْ أَمِنْتُم مَّنْ في السَّماءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً . فسَتَعْلَمُون كَيْفَ نذِيرِ . وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ » (٣) .

وإن الأَرزاق والأَقوات بيد الله ، فإن منع رزقه عمن يجحد به فهل يجد له رازقاً سواه :

---

(١) سورة الحديد ٥
(٢) سورة آل عمران ٢٦
(٣) سورة تبارك ١٦ — ١٨

« أَمَّنْ هَذا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ » (١) .

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غوْراً فمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ » (٢) .

إن نعم الله تغمر العباد ، وإحسانه يأتيهم في كل آن ، فكيف يجحد فضله الجاحدون ، ويعمى عن قدرته الضالون ؟ . . إن هذا الجحود لا يستقر إلا في أنفس الفاسقين ، ولا يملأ إلا قلوب الغاوين ، كما يقول سبحانه :

« قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُون اللهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ . كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ » (٣) !

---

(١) سورة تبارك ٢١
(٢) سورة تبارك ٣٠
(٣) سورة يونس ٣١ ــ ٣٣

فلا عجب أن يكون أساس عقيدة المسلم هو الإيمان بالله واليقين بوجوده ، وتوحيده وتنزيهه عن الشركاء .

وتوحيد الله سبحانه بمعنى إفراده وحده بالعبادة والخضوع هو غاية من غايات الإسلام ، التي جاء ليثبتها في أنفس العباد ، وهو كذلك عنصر أساسي في عقيدة المسلم .

فقد كان هناك من يعرف الله ، ويؤمن بأنه الخالق الرازق ، ومع ذلك يشرك معه غيره ، من الحجارة أو من الكواكب أو من الناس ، وذلك ضلال كبير .

فإذا أيقن الإنسان بأن الله هو الذي خلقه ، وهو الذي يملك أمره ، فما معنى أن يشرك به جماداً أو حيواناً أو إنساناً ، وكلهم من خلق الله ؟ . . إن هذا السقوط في التفكير قد استدعى حرباً شديدة على الشرك اشتمل عليها القرآن . . .

يقول الله سبحانه :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ والَّذِين مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً

وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١) » . .

إن الشرك دليل على فساد العقل ، وخبث النفس ، وانطماس البصيرة ، ولهذا كان أعظم ذنب عند الله فلا يناله الغفران ولا يشمله العفو ، كما يقول سبحانه : « إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ إِناثاً وَإِنْ يَدْعُون إِلاَّ شَيْطاناً مَرِيداً » (٢) . أما التوحيد فهو ثورة على العبودية لغير الله ، تلك العبودية التي كانت وصمة في جبين الإنسانية من قديم الزمان ، وما زالت حتي اليوم في بعض أنحاء الأرض . !

وما من رسول إلا واجه قومه بدعوة التوحيد وقام ينادي : « يَا قَومِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ » (٣) .

ولكن سفاهة المشركين أعمت أبصارهم وأضلتهم عن سواء السبيل . .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٢ (٢) سورة النساء آية ١١٦ ، ١١٧

(٣) سورة الأعراف آية ٥٩

« فَتَعَالَى اللّٰهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . أَيُشْرِكُونَ مَالَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ . وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ . وإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُم صَامِتُونَ . إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ عِبَادٌ أَمْثالُكُمْ ، فَادْعُوهُمْ فلْيَسْتَجِيبُوا لكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُون بِهَا أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فلَا تُنْظِرُون (١) » .

• • •

ولقد تطور الشرك في بعض الأحيان ، واختلط بالأديان . . !

وهذا أعجب ما حدث في تاريخ التدين . .

فقد أشرك النصارى عيسى بن مريم وأمه مع الله . .

ولم تتميز لديهم البشرية بحدودها عن الألوهية بكمالها وعظمتها . .

فعيسى بن مريم بشر . . دم ولحم . . ولكن ولادته

---

(١) سورة الأعراف الآيات ١٩٠ ــ ١٩٥

كانت بغير أب ، بل حملت به أُمه بقدرة الله التي تقول للشيء كن فيكون . .

فهل يعني ذلك أنه يكون ابن الله كما يزعمون ! . .

إن هذا إفك ، يعلن القرآن بطلانه : « يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَا تغلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلى اللهِ إلاَّ الحَقَّ إنَّمَا المَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلقاهَا إلىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ (١) مِنْهُ ، فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَاتَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلٰهٌ واحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا في الأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلا . لَنْ يَسْتَنْكِفَ(٢) المَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً للهِ وَلا المَلَائِكَةُ المُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إليهِ جَمِيعاً (٣) » .

ذلك هو موقف القرآن من عيسى عليه السلام . .

فليس في الأمر غموض ولا إبهام ، ولا طلاسم تحير العقول وتستحيل على الأفهام . .

---

(١) أى سر من أسراره .
(٢) يستنكف : يستكبر
(٣) سورة النساء ١٧١ ، ١٧٢

بل إن عيسى عليه السلام سيبْرأ يوم القيامة مما أُشيع عنه ، وما افتري عليه ، وذلك على رؤوس الخلائق يوم يجمع الله الرسل :

« وَإِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَايَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وأَنْتَ علىٰ كُلِّ شَيءٍ شَهيدٌ (١) » .

• • •

ومن المؤْسِي أَن شيئاً من هذه اللوثة قد سرى إلى المسلمين في عصور الضياع والجهل ، وعهود التقاليد والتِّباعة ، فشابت عقيدة التوحيد لديهم شوائب نالت من صفائها وإخلاصها . .

إن العاطفة التي تربط المسلم بالصالحين من الأَحياء

---

(١) سورة المائدة ١١٦ ، ١١٧

أَو الأَموات أَمر لا بأْس فيه ، ولكنها لا ينبغي أَن تصل إلى الاعتقاد بأَن لهم من الأَمر شيئاً ، أَو أَنهم يملكون نفعاً أَو ضرا . . فهذا هو ما جاءَ الإِسلام لحربه وتطهير العقيدة منه . .

لكن المجادلين بالباطل يستخرجون من القرآن آيات يفهمونها على أَهوائهم ، ويحتجون بها على سلامة عقيدتهم وشرف غايتهم . .

إلى حد أَن قامت المناقشات وطال الجدال بين من يَدْعون إلى التوحيد الخالص . . ومن يتمسكون بالوسطاء والشفعاء . .

والأَمر لا يحتاج لهذا الجدَل . . فالقرآن يقطع بأَنه لا ينفع ولا يضر إلا الله ، وبأَن الكون كله في قبضته وليس لغير الله فيه رأْي ولا حكم ، والله يخاطب رسوله فيقول: « لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمرِ شَيءٌ » (١) فإِذا كان ذلك شأْن الرسول صلوات الله عليه فكيف يكون شأْن سواه . . ؟!

---

(١) سورة آل عمران آية ١٢٨

إنَّ صرف الرجاء إلى غير الله ، والطلب منه ، يتجافى مع توحيد الله وإفراده بالعباده .

فالله سبحانه يقول : « وقال ربكم : ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » (١) .

والرسول صلوات الله عليه يقول : « الدعاءُ هو العبادة » (٢)

ويقول : « إذا سألتَ فاسأل الله ، وإذا استعنتَ فاستعن بالله » (٣) . .

فأي شبهة بعد هذا أو غموض يجعل لأحد عذراً في أن يترك ربه ويسأل العبيد ؟

إن كثيراً من الذين شيدوا القبور وجمعوا حولها العامة لم يكن لهم حظ من الفقه في الدين أو رعاية أصول العقيدة الإسلامية ، وما كانوا يبغون إلا أن يبنوا لأنفسهم مجداً أو يكسبوا حمداً ، فلأنفسهم كانوا يَمهْدون ، ولحقيقة دينهم كانوا يجهلون .

---

(١) سورة غافر آية ٦٠ (٢) رواه الترمذي وأبو داود
(٣) رواه الترمذي .

وتبعهم في ذلك أهل الأهواء والأغراض ، واجتمع عليهم الطالبون والراغبون والسائلون والضارعون . .

على أن الأمر في شكله يغضب الله ، ولا يستحق رضاه . .

فمن المبدأ لا يقر الإسلام قبراً يرتفع عن الأرض .. وقد كان الرسول صلوات الله عليه يرسل من يسوّي القبور بالأرض حتى لا تُعبد من دون الله .

وليس في الإسلام ما يجيز أن يُتخذ قبرٌ مسجداً . . مهما كانت منزلة صاحب القبر ، حتى لو كان رسول الله . فمن الثابت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في مرض موته : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجداً ، ألا لا تتخذوا قبري مسجداً(١) »

فكيف اتخذت القضية هذا الشكل العجيب . . حتى يظن الجاهلون أن هذه القبور هي ملجؤهم ومفزعهم عند الكروب . . .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه .

« أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَولِيَاءَ ؟ فاللهُ هُوَ الوليُّ وَهُو يُحْيِي المَوْتىٰ وَهَوَ عَلىَ كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ (١) » .

* * *

والمسلم الذي يؤمن بربه وحده لا شريك له ، لابد أن يوقن بأن الله سبحانه متصف بكل صفات الكمال ، منزه عن جميع صفات النقص ، وهذا أمر يقطع به العقل قبل أن ترِد به نصوص الشرع . .

فإنَّ من أَبدع هذا الكون ودبر أُموره بحكمته ، وخضع له كل شيء فيه ، لا بد أن يكون ذا كمال وجلال وقدسية وعظمة ، لايلحقه عيب ولا نقص .

وتلك حقيقة يبصرها القلب ويطمئن إليها الوجدان.

وقد وصف الله تبارك وتعالى نفسه لعباده كي يعرفوه ويحمدوه ويفردوه بالعبادة والخضوع .. فإن من يدرك عظمة ربه وجلاله ، لا يشرك به غيره ولا يعدل عنه إلى سواه .. ولكن الجاهلين به هم الذين لايقدْرونه حق قدره ولا يعرفون كماله وجلاله : « وَمَا قَدَرُوا اللهَ

---

(١) سورة الشورى آية ٩

حقَّ قَدْرِهِ والأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ والسَّمَوَاتُ مَطْوِيَاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتعَالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) » .

فالله سبحانه حيّ لا يموت ولا ينام ، وحياته سبحانه هي أَصل كل حياة ومنشأ كل وجود . . « اللَّهُ لَا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومَ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لهُ مَا في السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ (٢) » .

والله ـ سبحانه ـ قديم لا أَول لوجوده . . . فلم يَسْبق وجوده عدم . . وهو باقٍ ليس لوجوده نهاية وليس لحياته فناء . . كما يقول سبحانه : « هُوَ الأَوَّلُ والآخِرُ والظَّاهِرُ والبَاطِنُ وَهُوَ بِكلِّ شَيءٍ عليمٌ (٣) » .

وهو ـ عز وجل ـ مخالف لكل المخلوقات ، فلا يشبهه منها شيء . . وكيف يشبه المخلوق خالقه . . .. يقول الله سبحانه « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ وَهَوُ السَّمِيعُ البَصِيرُ (٤) » .

ووجوده سبحانه وجود ذاتي . . لا علة له ولا سبب ، فوجوده أَصل كل وجود ، كما يقول الله عز وجل :

(١) سورة الزمر آية ٦٧ (٢) سورة البقرة آية ٥٤
(٣) سورة الحديد آية ٣ (٤) سورة الشورى آية ١١

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحدٌ » (١) .

ومعنى الصمد : الذي يلجأ إليه كل موجود ويفتقر إليه كل حي ، وهو الغني عن خَلقه . وهو سبحانه واحد ، لا مثل له ولا شريك . .

ولذلك أمر عباده أن يوحدوه ويفردوه بالعبادة والخضوع . وقد أثبت القرآن أن الله واحد ، ليس له شريك في مُلكه ولا في خَلقه ، كما يقول الله عز وجل : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتا . . » (٢) .

« إذاً لذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بما خَلَقَ ، وَلعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْض سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ » (٣) . .

والآية تشير إلى حقيقة أثبتها العلم الحديث ، وهي أن النظام الذي يسري في هذا الكون نظام واحد ، لا تعارض فيه ولا اختلاف ، فالنسب التي تتكون منها

---

(١) سورة الإخلاص .
(٢) سورة الأنبياء ٢٢ (٣) سورة المؤمنون ٩١

الأجسام واحدة ، والقوانين التي تحكم مظاهر الطبيعة أيضاً واحدة ، وكل ما في هذا الوجود يشير إلى أن خالقه واحد .

« هَذَا خَلْقُ اللهِ ، فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُون فِي ضَلالٍ مُبِينٍ » (١) .

وهو عز وجل سميع ، يسمع الأصوات جميعاً ، وإن كانت همساً أو مناجاة . . « قَدْ سَمِعَ اللهُ قَولَ الَّتي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إلىٰ اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرُكُمَا إنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ » (٢) .

وهو بصير ، يطّلع على كل ما في الوجود ، ويراقب كل موجود : « سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسرَّ القَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمنْ هُوَ مُسْتَخِفٍ بِالليلِ وَسَاربٌ بِالنَّهارِ (٣) » « وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ » (٤) .

وهو سبحانه متكلم ، بلا كيفية ؛ فليس كلامه مثل كلامنا . . بل هو صفة قائمة بذاته تتنزّه عن مشابهة العباد .

---

(١) سورة لقمان ١١ (٢) سورة المجادلة ١
(٣) سورة الرعد ١٠ (٤) سورة الشورى ١١

« وَكَلَّمَ اللَّهُ موسَىٰ تَكْلِيماً » (١) .

وهو قادر ، وليس لقدرته حد : « إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شيءٍ قديرٌ » (٢) وهو مريد . . وليس لإرادته مؤثر من غيره فهو سبحانه يفعل ما يشاء : « فعَّالٌ لِما يُريدُ » (٣) .

وعلى العباد أن يعرفوا صفات ربهم وأوصاف كماله ، وأن ينزهوه عن كل نقص ومشابهة لخَلْقه ، فإن ذلك واجب العبد نحو خالقه العظيم « سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَىٰ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهدَى » (٤) .

« فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الحَمْدُ فِي السَّمَواتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ » (٥)

* * *

تلك صورة عن إيمان المسلم بربه وعقيدته فيه . .

ليس فيها مشكلات ولا محيرات ، ولا طلاسم ولا طقوس .

---

(١) سورة النساء ١٦٤
(٢) سورة فاطر ١
(٣) سورة البروج ١٦
(٤) سورة الأعلى ١ ـ ٣
(٥) سورة الروم ١٧ ، ١٨

بل هي بسيطة واضحة تعتمد على حقائق الكون والحياة . .

والمسلم بهذا المعنى يرى ربه في كل شيء ، ويذكره في كل ما تقع عليه عيناه ، ويتصل به في حياته ، في مشاهد الطبيعة وأحداث الحياة . .

« إنَّ فِي خَلْقِ السَّمواتِ والأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ لآياتٍ لأُلِي الأَلبَابِ الذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ وَيَتفكَّرُونَ فِي خَلقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فقِنَا عَذابَ النَّارِ » (١) .

« إنَّ فِي السَّمواتِ والأَرْضِ لآياتٍ لِلْمُؤمِنِينَ . وَفي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَةٍ آياتٌ لِقَومٍ يُوقِنُونَ . وَاخْتِلافِ اللَّيلِ وَالنَّهارِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » (٢) .

• • •

وهذه العقيدة الواضحة البسيطة هي الأساس الذي

---

(١) سورة آل عمران ١٩٠ ، ١٩١ (٢) سورة الجاثية ٣ ـ ٥

يقوم عليه تصور المسلم للكون والحياة .

وهي التي تهبه الطمأنينة والثقة واليقين ، وتوضح أمامه غوامض الوجود .

« الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ » (١) . فهي تقضي على القلق والحيرة والشك والإرتياب .

وتنشىء إنساناً يحدد اتجاهه في الحياة على أساس واضح مستنير مستقيم . .

وهي بعد ذلك أعلى مراتب المعرفة وأكمل درجات اليقين . .

ومن هنا كانت النفس الخاوية من العقيدة الإسلامية نفساً ضائعة حائرة لا تطمئن ولا تستريح ، كما قال سبحانه : « وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السماءِ فَتَخْطَفُهُ الطيرُ أَو تَهْوِي بِهِ الريحُ في مَكَانٍ سَحِيقٍ » (٢) .

وصدق الله العظيم : « وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ »(٣).

---

(١) سورة الرعد ٢٧ (٢) سورة الحج ٣١

(٣) سورة التغابن ١١

مؤمن بالآخرة

يعيش المسلم في هذه الدنيا ونظره يمتد إلى الحياة الباقية ، فهو يدرك أن الإنسان لم يُخْلق للفناء ، وإنما خلق للبقاء ، وأن هذه الدنيا مرحلة في الطريق وليست هي نهاية المطاف .. ومن هنا يختلف نظره إلى الحياة عن غيره ، ويسلك فيها سبيل المؤمنين .

« رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ الميعَادَ » (١) .

* * *

فالمسلم يعلم أن من أصول الإيمان التي لا بد من التصديق بها ، أن هناك حياة أُخرى تعقب فناء هذا العالم ؛ يجد فيها كل إنسان الجزاء العادل على ما قدمه في دنياه ..

ولا يعنيه أن يكذب بعض الناس بالبعث وينكروا الحياة بعد الموت ، فمن قديم الزمان كان هناك ماديون يكفرون بالآخرة ، ويقصرون اهتمامهم على هذه الحياة الدنيا ، غير مصدقين ببعث ، ولا مؤمنين بجزاء .

---

(١) سورة آل عمران ٩

وقالوا : « إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمبْعُوثِينَ » (١) .

بل كانوا يرون أن عقيدة البعث خرافة قديمة أشاعها الأولون ، وكانوا يسخرون منها قائلين : « أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمبْعُوثُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ » (٢) .

وبلغ بهم الجحود بالبعث منتهاه فأقسموا أن لن يكون : « وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللهُ من يَمُوتُ » (٣) . .

وأكبر ما يدفع الجاحدين إلى التكذيب باليوم الآخر أنهم يريدون إطلاق العنان لأنفسهم ، فلا يتقيدون بمبدأ ولا خلُق ، ولا يرقبون جزاءً ولا يرهبون حساباً ، ولا يرجون بعثاً ولا حياة ولا نشورا ، كما قال الله عز وجل:

« أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ بَلْ يُرِيدُ الإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ » (٤).

* * *

(١) سورة المؤمنون ٣٧
(٢) سورة المؤمنون ٨٢ ، ٨٣
(٣) سورة النحل آية ٣٨
(٤) سورة القيامة آية ٣ — ٦

والمسلم يؤمن أن اليوم الآخر نتيجة لازمة لقيام هذه الحياة الدنيا ، فالحياة ميدان كبير ، شهد وما يزال يشهد تصارع الحق والباطل وتنازع البقاء ، وظلم الأقوياء للضعفاء . .

لقد شهدت الحياة وماتزال تشهد دماء سفكت بغير حق ، وحقوقاً اغتصبت بالعدوان والقهر . .

كما شهدت طغيان الشهوات وتصارع الرغبات وانتهاك الحرمات . . !

فلا بد من يوم يظهر فيه الحق ، وينصف فيه المظلوم ، ويلقى كل إنسان ثمرة سعيه في الحياة . .

ولذلك يردّ القرآن على الجاحدين الذين أقسموا بالله جهد إيمانهم لا يبعث الله من يموت ، بقوله :

« . . بَلَىٰ وَعْداً عَلَيْهِ حَقاً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ » (١) .

---

(١) سورة النحل ٣٨ ، ٣٩

ففي اليوم الآخر تتضح الحقائق ويُفصل في القضايا التي طال فيها الخلاف . !

• • •

والمسلم يري أن الحياة الدنيا دون الآخرة لامعنى لها . وإنما تظهر قيمتها وتتضح جدواها حين تعقبها تلك الحياة التي تتحقق فيها الصَّفَة ، ويقام فيها العدل ، وتصحح الأوضاع . .

ولهذا يصف القرآن الدنيا بأنها لهو ولعب بالنظر للآخرة التي هي الحياة الحقيقية . . يقول تعالى:« وَمَاهَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاَّ لَهْوٌ وَلِعبٌ وإنَّ الدَّارَ الآخِرَة لَهِيَ الحَيَوانُ » (١) .

فالذين ينكرون الآخرة ويكفرون بالبعث ، يتجاهلون المرحلة الكبرى من حياة هذا الإنسان ، ويقصرون نظرهم على الفترة القليلة التي يحياها في الأرض . .

وهم لذلك تضيق آفاقهم وتسخف تصرفاتهم ، لأنهم ينظرون إلى الدنيا على أنها الميدان الوحيد . .

• • •

(١) سورة العنكبرت ٦٤ والحيوان : الحياة العظيمة .

ولقد بلغ من ضلال هؤلاء الجاحدين أن أنكروا قدرة الله على البعث واعتقدوا استحالة أن يحيا الإنسان بعد الموت . وهو وهمٌ لا دليل عليه .

فإن قدرة الله لا يستحيل عليها شيء . .

والله سبحانه قد خلق هذا الإنسان وأوجده من عدم ، أفلا يقدر على إعادته كما بدأه . . ؟ والإعادة أهون من الابتداء . .

ولقد ناقش القرآن أوهام المكذبين بالبعث ، فأظهر افتراءهم وكشف بهتانهم ، وهدم باطلهم الخبيث . .

يقول سبحانه : « ويقول الإِنْسَانُ أَئِذَا مَامِتُّ لسَوْفَ أُخْرَجُ حَياً أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبَلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً . . » (١) .

« وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسَى خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ » (٢) .

---

(١) سورة مريم آية ٦٦ ، ٦٧ (٢) سورة يس آية ٧٨ — ٨٠

إن من العجيب أن المكذبين بالآخرة يغفلون عن قدرة الله التي تظهر آثارها في آفاق الكون وفي أنفس الناس . .

ونشأة الإنسان بأطوارها أثر من آثار قدرة الله ، وهي كذلك دليل من أدلة البعث . . فكيف يكذّب الجاحدون بالآخرة وفي أنفسهم الدليل . . !

يقول الله سبحانه : « يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ ما نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً . وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَرَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ الله يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ » (١).

• • •

(١) سورة الحج ٥ ــ ٧

ولما كان الإنسان لا يصل إلى اليقين إلا بدليل حي يثبت إيمانه ويدعم عقيدته ، فقد أخبرنا القرآن الكريم أن الله سبحانه قد بعث أمواتاً بعد موتهم ، وردهم إلى الحياة . .

كل ذلك لئلا يشك أحد في قدرة الله على البعث ، أو ينكر الحياة بعد الموت ، وقدكان هـذا استجابة لإبراهيم الخليل عليه السلام الذي سأل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى . . !

« وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَٰكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ » (١) .

وقد كان إبراهيم الخليل في ذلك متطلباً لآية باهرة تقطع ألسنة الجاحدين الذين طالما ارتابوا في الحياة بعد الموت ورأوا في ذلك خرافة من أساطير الأولين ، ومثل

(١) سورة البقرة ٢٦٠ ومعنى صرهن إليك : اعرفهن وميزهن . فذبحها إبراهيم وقطعها وفرقها في الجبال .

هذه الآية التي رجاها إبراهيم واستجاب له فيها ربه تظل علماً من أعلام الإيمان ودليلا من دلائل القدرة الإلهية على مر الدهور ، يصبح حجة قائمة على كل من خوطب بأمانة التكليف وحمل رسالة الحياة .

وهذه الآية تثمر طمأنينة القلب ، وهي مرتبة فوق الإيمان ، إذ هي السكون والأمن ، فلا قلق ولا ارتياب ، وليس هذا لإبراهيم وحده ، بل هو في ذلك متحدث بإسم الإنسان نائب عنه في معاينة دلائل الإيمان.

وكذلك قصة العزيز وحماره ، التي جعلها القرآن دليلا حيًّا يملأ القلوب باليقين .

« أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ (١) وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا(٢) ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً

(١) أي : لم يتغير .
(٢) أي : نرفعها من الأرض ونعيدها إلى أجسامها .

فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) » .

إن الرجل استغرب بعث الله للأموات وسأل كيف يمكن أن يبعثهم الله ؟ فأراه الله كيف بعثه هو نفسه ! بعد أن صار عظاماً بالية وتراباً لا حركة فيه ولا حياة.. !

وكل هذه دلائل يؤمن بها المسلم فتملأ قلبه يقيناً بالآخرة واطمئناناً إلى الحياة بعد الموت :

« كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (٢) » .

أما الذين يكفرون بالآخرة فإنهم يجعلون الإنسان شيئاً حقيراً لا قيمة له في الكون ولا رسالة له في الحياة .

ويعتبرون الحياة مهزلة لا هدف لها ، ولا غاية وأنكم من ورائها . .

وهذا ما أنكره الإسلام على هؤلاء العابثين . .

يقول الله سبحانه : « أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (٣) » .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٩ (٢) سورة الأنبياء ١٠٤
(٣) سورة المؤمنون ١١٥

فكيف يمكن أن تقوم هذه الدنيا بتاريخها الطويل ، وصراعها الرهيب ، ثم لا تكون لها عاقبة ، ولا يكون وراءها هدف . . !

إن هذا وهْم عابث لا يؤمن به إلا الضالون ، ولا يراه إلا الكافرون كما يقول الله سبحانه :

« وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وأُولَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّـار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١) » .

* * *

وحتى اليوم فلا زال هناك من يكذبون بالآخرة ويشككون الناس فيها . .

وهؤلاء حائرون ، يائسون ، يعيشون في أوهام طائشة ، وتصورات خاطئة ، لا أمل لهم في المستقبل ، ولا رجاء لهم في الحياة . .

وهم لا يكلفون أنفسهم مشقة البحث في مصيرهم

---

(١) سورة الرعد ٥

بعد الموت ، ويحجبهم الجهل والغفلة عن التهيؤ والاستعداد لمواجهة المستقبل الأخير . . كما يقول الله تعالى :

« إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (١) » .

ولازالت الضلالات القديمة تتردد على ألسنة الجاحدين في هذا الزمان ، فهم يستعجلون القيامة ويقولون : لماذا لم تأت حتى الآن ؟ ومتى تكون . .

وقد تردد هذا القول على ألسنة الكافرين القدماء ، وقد رد عليهم الله سبحانه بقوله : « يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢) » .

إن للساعة موعدها الذي لا يعلمه إلا الله ، ولا يؤثر فيه شكُّ الجاهلين أو عجلة المكذبين . .

« .. وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً ،

---

(١) سورة محمد ١٢ (٢) سورة الشورى آية ١٨

يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً » (١) .

* * *

وبعد . . فما أثر الإيمان بالآخرة في نفس المسلم ، وفي سلوكه في الحياة ؟ إن هذه العقيدة لا تجعل الدنيا هي الميدان الوحيد في نظر الإنسان ، فهي مرحلة من مراحل الحياة الإنسانية ، ولكنها ليست كل شيء . .

فالجزاء على العمل وثمرة السعي في الحياة ليست في الدنيا ، ولكنها في الآخرة . .

ومن هنا يكون المؤمن بالآخرة أصبر على العمل وأقدر على الكفاح .

ومن هنا يعمل المؤمن مخلصاً وهو يبتغي جزاءه من الله لا لشهوة ولا جاه . .

ومن هنا لا يضيق بحياته إن أُحيطت بالمكاره وامتلأت بالآلام ، فما يفوته هنا يجده هناك . . !

أما الذي لا يؤمن بالآخرة فهو ضيق الأفق ، معتم

(١) سورة الإسراء ٥١ ، ٥٢

النظر ، لا أمل له ولا رجاء ، فليس له إلا شقاء القلب وحيرة الاتجاه ، وظلام اليأس ، وعذاب الآخرة . .

« إِنَّ الَّذِينَ لاَيَرْجُونَ لِقاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِم تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » (١) .

(١) سورة يونس ٧ — ١٠

مصدّق بحقائق الآخرة

يوقن المسلم بالآخرة ويصدق بحقائقها ، وهو لايقحم نفسه فيما ليس له به علم ، ولا يخوض فيما لايصل إلى معرفته ، وهو ليس ماديًا يكفر بالغيب أو يجحد عالم الروح ، بل يؤمن بما أخبر به القرآن الكريم وما وردت به السنة المطهرة . .

ولئن كان بعض الناس يخلطون الحق بالباطل ويجعلون في عالم الغيب مُتّسعاً للأكاذيب والأساطير فإن المسلم الحق يؤمن بحقائق الآخرة التي جاءت بها أدلة الشرع وينفي ما عدا ذلك من جهالات ويجعل تصوره في ذلك قرآنيًا صادقاً .

والمسلم يعتقد أنه حين ينتهي عمر الإنسان ويحضر أجله ، فإن ملائكة من السماء يوكلون بإحضار روحه بعد قبضها ، فالمؤمن يتلقونه بالتكريم والسلام : « الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ(١) » ثم يصعدون بروحه إلى السماء ، فيتقبل الله عمله ، ويأذن له بالرحمة والمغفرة.

(١) سورة النحل آية ٣٢

ثم يهبطون بروحه إلى الأرض فيُسأل في قبره عن الإله الذي يعبده وعن الدين الذي يؤمن به ، وعن اعتقاده في الرسول الذي بُعث إلى أمته ، والمؤمن الحق ينجح في ذلك الامتحان بصدق وثبات ، فقد عاش على العقيدة الصحيحة والإيمان الواثق والاتجاه القويم . .

وعندئذ ينتهي العناء ، ويتكشف المستقبل للمؤمن مشرقاً بهيجاً ، فقد ثبت إيمانه وقُبل عمله ، فيفتح له باب إلى الجنة فيأتيه من روحها وطيبها ويحاط بالبشارة والإيناس .

• • •

وعلى نقيض ذلك يكون أمر الفاجر الكافر ، إذ يحاط بالفزع والخوف حين موته : «وَلَوْ تَرَي إِذْ يَتَوَفَّ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وأَدْبَارَهُمْ ، وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » (١) .

فإذا قبضت روحه أوصدت أمامها أبوابُ السماء : « إِنَّ الَّذين كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها لاتُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُون الْجَنَّةَ . . » (٢).

---

(١) سورة الأنفال ٥٠ ، ٥١ (٢) سورة الأعراف آية ٤٠

وعندما يسأله الملائكة في القبر لا يستطيع الجواب السديد ، لأنه عاش كالسائمة ، لايعرف ربًّا ، ولا يدرك حقيقة ولا يؤمن بحساب ، وحينئذ يبدو له مستقبله الحافل بالآلام ، ويفتح له باب إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ، ويوكل به من يعذبه في قبره حتى تقوم الساعة.

* * *

حتى إذا همدت الحياة على ظهر الأرض ، وأذن الله بخراب هذا العالم ، وحلت الساعة التي يجمع الله فيها الأولين والآخرين لحساب عام ومحاكمة جامعة فإن الناس يخرجون من قبورهم جماعات جماعات ، فتزدحم بهم الأرض ، وتمتلىء أقطارها : « يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (١) » .

عندئذ يتذكر الناس أن هذا هو الوعد الذي طالما ذكَّرهم به الأنبياءُ ، ونادت به الرسالات : « وَنُفِخَ في الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ قَالوا يَاوَيلنا منْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ » (٢) .

---

(١) سورة القمر آية ٧ (٢) سورة يس ٥١ ، ٥٣

وقد ورد في السنة أَحاديث تصف الأَرض التي يحشر فوقها الناس ، وهي لا تدل بالقطع على مكان معلوم ، ولكنها تذكر علامات لذلك الموضع الذي يحشر فيه الخلق . . ومنها ما رواه الشيخان عن سهل بن سعد أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يُحشر الناس يومَ القيامة على أَرض بيضاءَ عفراءَ كقرصة نقيٍّ (١) ليس فيها مَعْلم لأَحد » .

ومعناه أَن أَرض المحشر بيضاءُ ليست خالصة البياض وليس فيها علامة حياة يعرفها أَحد من الناس ، والله هو العليم بما يخْلق ويقدِّر ، وليس علم ذلك مما تصل إليه الأَفهام .

* * *

والمسلم لا يحاول تحديد المكان والكيفية وغيرها من أَحوال الحشر والحساب والجزاء ، فكل ذلك من عالم الغيب الذي لا يجوز التهجم عليه ولا التزيد على ماورد فيه من أَخبار صحيحة .

فنحن في الدنيا لنا مقاييس خاصة في الفهم والمعرفة .

---

(١) أي كقرصة من دقيق نقي .

ويوم القيامة تتبدل مقاييسنا وتتسع طرقنا في العلم والإدراك ، بعـد أن كنا محكومين بالحواس لا نعلم شيئاً إلا عن طريقها ، أما في الآخرة فيستكشف لنا من عالم الغيب ما لم نكن نقدر في الدنيا على معرفته .

« لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » (١) .

فلا يجوز لنا أن نخضع عالم الغيب لحواسنا ، ونحاول أن نبحثه بطرقنا الحسية الضئيلة ، بل علينا أن نؤمن به ونعتقد أنه حق ، ونتصوره بالصورة التي أخبر بها الدين فحسب .

* * *

وبعد الحشر يحاسب الناس وتوزن أعمالهم .

« فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » (٢) .

والمقصود بالوزن الترجيح بين سعي الإنسان في الخير وسعيه في الشر فإن كانت رغبته في الخير صادقة وسعيه إليه حثيثاً ، فهو فائز سعيد .

---

(١) سورة ق ٢٢ (٢) سورة الزلزلة ٨٧

وإن كانت حياته صفحة مظلمة ، أو ليس فيها إلا ومضات خاطفة من الضياء فهذا دليل على أن اتجاهه في الحياة كان ضالاً وسعيه فيها كان فاسداً فهو خاسر بائس .

وهذا ما يقصد إليه القرآن بقوله :

« فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ »(١)

وبعد الحساب يمر الناس بالصراط في طريقهم إلى مصائرهم . . فمن عبره خلص إلى الجنة وهو الذي رشحته أعماله لها ، ومن لم يستطع عبوره هوى إلى النار ، وهو الذي استحق العذاب بما قدمه في دنياه .

* * *

إن من صفات المؤمنين أنهم لا يجحدون ما وعدهم الله به في الآخرة ولا يشكون فيه . فحقائق الآخرة لا تنافي العقل ولا تصعب على قدرة الله القاهرة : « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ » .

---

(١) سورة المؤمنون ١٠٢ ـ ١٠٤

والمؤمنون كما وصفهم الله سبحانه : « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبالآخِرةِ هُمْ يُوقِنُونَ . أُولٰئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١) » .

ولا يناقض ذلك الإيمان حقائق العلم ، فهو لا يدخل في مجاله الحسي ، وإنما يعود إلى أمر الإيمان بالغيب الذي يميز عقيدة المسلم .

• • •

وقد تضمن القرآن الكريم مشاهد حية وصوراً واضحة لما سيكون في الجنة من ألوان النعيم ، وما في النار من صنوف العذاب الأليم . . والمسلم يؤمن بأن ما أخبر الله به حق ، ويؤمن بصدق الوعد والوعيد « وعْد اللهِ لاَ يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ » .

لقد صورت هذه المشاهد مشاعر أهل الجنة حين يرى بعضهم بعضاً ، فترجع بهم الذكرى إلى الدنيا وأحوالهم

---

(١) سورة البقرة ٣ ــ ٥

فيها ، فيحسون بفضل الله حين وفقهم إلى إتباع الحق ووجههم إلى سبيله المستقيم .

كما صورت أيضاً مشاعر الجاحدين المكذبين حين يواجهون العذاب ويفاجأون بأهواله ، وحين يرون أمم الكفر قبلهم وبعدهم ، يشاركونهم نفس المصير .

• • •

وقد حدد القرآن طبيعة العذاب الذي سيلاقيه المكذبون في الآخرة وبين أوصافه .

يقول الله سبحانه : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً (١) » .

وجهنم هي مكان العذاب ، وهي مأوى الجاحدين : « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٢) » .

وللعذاب بالنار طرق رهيبة لا يطيقها الجاحدون ، فيتألمون ويفزعون : « هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ

---

(١) سورة النساء ٥٦ (٢) سورة الحجر ٤٣ ، ٤٤

رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيد ، كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ، وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١) » .

وغذاء المعذبين في جهنم نار وجمر ، وشرابهم لهب وحريق ، وهذا لون من ألوان العذاب : « إِنَّ شَجَرتَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ ، كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ، كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٢) » ، « ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ ، ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٣) » .

• • •

وعلى أبواب جهنم تلتقي أجيال الكفر والضلال جميعاً يوم القيامة ، فقد جمعت بينهم في الدنيا مبادىء واحدة ، وأصموا آذانهم عن سماع دعوة الحق ، وأغمضوا أعينهم عن سناه .

وحين يرون أنفسهم في مصير واحد ، ويتضح لهم أنهم أجيال خاسرة ، حرمت نعمة الاهتداء إلى الحق وسلوك الصراط المستقيم ، تشيع في قلوبهم مرارة الحسرة وألم الخسران ويلعن بعضهم بعضا .

---

(١) سورة الحج ١٩ ــ ٢٢ (٢) سورة الدخان ٤٣ ــ ٤٦
(٣) سورة الصافات ٦٧ ، ٦٨

يقول الله سبحانه : « قالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ فِي النَّارِ ، كُلَّمَا دَخَلتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها ، حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ : رَبَّنَا هؤُلاءِ أَضلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ، قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلكِنْ لاتعْلَمُون . وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ : فَمَا كَان لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ، فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (١) » .

وهذه المناقشة بين أمم الكفر مفيدة لمن يتدبرها ، ويدرك من ورائها عبر التاريخ .

فالآخرون من الجاحدين يلقون تبعة ضلالهم على الأولين ، لأنهم هم الذين سنُّوا لهم سُنة الكفر وأورثوهم مبادىء الغواية التي لم يخل منها جيل من الأجيال .

والأولون من الجاحدين يجيبون الآخرين بجواب يملأ قلوبهم حسرة ، يقولون لهم : لم تلقون علينا التبعة وتسألون الله أن يزيد في عذابنا ، وأنتم تستحقون مثل عذابنا ، فليس لكم ميزة تمتازون بها علينا فإن كنا ضللنا فأنتم ضللتم ، ولم تبحثوا بعقولكم عن حقائق

(١) سورة الأعراف ٣٨ ، ٣٩

الكون ، ولم تفهموا سر الحياة ، فنحن وأنتم سواء . . في الذنب وفي العذاب . . !

وهكذا ضاعت أجيال كثيرة اتبعت ما ورثته من ضلال ، واقتدت بالغاوين الجاحدين ، ولم تبحث عن الحقيقة وراء الأوهام والأباطيل.

وحين يأتي وفد جديد ليلقى به في النار يقال للذين سبقوا إلى جهنم : « هَذَا فوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ » فيرد السابقون : « لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالوا النَّار » فيجيبهم الفوج الجديد : « بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (١) ».

نعم .. «أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوه لَنَا» فأئمة الضلال وزعماء الإلحاد والفجور حين يستولون على مصادر التوجيه في المجتمع يضعون مبادىء الباطل التي ينقاد وراءها الجاهلون

ويوم القيامة يطلب الجاحدون من ربهم أن يزيد في عذاب من دعاهم إلى الضلال ، وأوردهم هذا المصير : «قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هٰذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ»(٢)

* * *

(١) سورة ص ٥٩ — ٦١ (٢) سورة ص .

وبينما الجاحدون في جهنم يلاقون أنواع العذاب ، وقد امتلأوا باليأس وأحاط بهم الهوان ، يُسأَلون عما أدى بهم إلى العذاب ، فيعترفون بضلالهم ويقرون أنهم كذبوا واستكبروا ، ولكن هذا الاعتراف لا يخفف من عذابهم ولا يؤدي إلى العفو عنهم ، يسألهم الله سبحانه : « أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١) »؟

فيجيبون ويقرون : « رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّين . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ(٢)».

وعندئذ يذكرهم الله سبحانه بموقفهم من دينه وأنصاره في الدنيا ، وكيف كانوا يؤذون المؤمنون ، ويسخرون منهم ويستهزئون ، فيقول لهم : « . . اخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ ، إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ، فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ، إِنّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الفَائِزُونَ (٣) » . .

* * *

---

(١) سورة المؤمنون ١٠٥ (٢) سورة المؤمنون ١٠٦ ، ١٠٧
(٣) سورة المؤمنون ١٠٨ ، ١١١

أما دار الثواب التي وعد الله المؤمنين بها فهي الجنة .

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً خالدين فيها لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً (١) » .

وفي الجنة كل مظاهر النعيم وكل أنواع المتاع ، الذي لم يذق مثله أحد في الدنيا ، كما ورد في حديث الرسول صلوات الله عليه عن ربه عز وجل : « . . أعدَدْتُ لعبادي الصالحين في الجنة ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خَطَر على قلب بشر (٢) » .

وقد صور القرآن بعض ألوان النعيم في الجنة . . ليكون حافزاً للأبرار على الجهاد في سبيل الحق والصبر على تكاليفه . .

« إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ . تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ . يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ . خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ(٣)

---

(١) سورة الكهف ١٠٧ ، ١٠٨ (٢) رواه البخاري ومسلم .
(٣) سورة المطففين ٢٢ — ٢٦

وليس في الجنة شيء من المكاره أو الآلام ، أو الخوف والفزع ، فأهلها يحاطون بالتكريم والنعيم . وألوان المباهج والنعم ، ففيها متاع الجسم وطمأنينة الروح : « . . فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ اليَومِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً . وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً . مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً . وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ، وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوابٍ كَانَتْ قَوارِيرا . . » (١) .

فالنعيم في الجنة ليس فوقه نعيم ، والتكريم فيها ليس وراءه تكريم وما ظنكم بمن يكرمه ربه العظيم . .

« وَإِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً (٢) » .

* * *

« إِنَّ هَذا كان لَكُمْ جَزاءً وَكان سَعْيُكُم مَّشْكُوراً »(٣).

وفي الجنة تتلاقى الأجيال التي آمنت بخالقها ، وأطاعت أمره ، وسارت في طريقه ، فيتذاكرون أيام

---

(١) سورة الدهر ١١ — ١٥ (٢) سورة الدهر ٢٠

(٣) سورة الدهر ٢٢

الدنيا الماضية التي عاشوا فيها جادِّين مجاهدين ، يحثون على الخطى ويبذلون الجهود لينالوا رضوان ربهم ، ويفوزوا بثوابه .

« وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ، قالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ . فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ، إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ البَرُّ الرَّحِيمُ(١)»

وفي الجنة يتذكر المؤمنـــون أولئك الضالين ، الذين كانوا يحاولون إغواءهم وإبعادهم عن الطريق المستقيم . .

وقد حكى القرآن قصة مؤمن كان له صاحب يكذب بالآخرة ويجحد لقاء ربه ، فإذا قامت القيامة ودخل المؤمن الجنة يقول لإخوانه : « إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ : أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ؟ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ؟! » أي هل تصدق بالجزاء بعد الموت ؟ ثم يقول لهم : « هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُون » أي : تعالوا بنا نسأل عن هذا الجاحد الضال « فاطَّلع فَرَآهُ في سَواءِ الجَحِيمِ ».

عندئذ يحمد المؤمن ربه على أن وفقه للإيمان وهداه بهداه ، وينادي صاحبه : « تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِين ،

---

(١) سورة الطور ٢٥ ــ ٢٨

ولولا نعمة ربي لكنتُ من المحَضرين » أي المعذبين في جهنم .

ثم يستنكر المؤمن آراءَ صاحبه الضالة التي كان يرددها في الدنيا : « أَفَمَا نَحْنُ بِمَيّتِينَ إلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولىٰ وَمَانحْنُ بِمُعَذَّبِين ؟ (١) » . .

* * *

لقد كان الخلاف في الدنيا على أَشده بين المؤمنين والكافرين في كل عصر ، وربما علا صوتُ الكفر على صوت الإيمان ، في بعض الأَحيان .

وحين تنتهي مصائر العباد في الآخرة ، ويجد كل فريق جزاءه العادل ، يسأَل المؤمنون الكافرين : هل اقتنعوا وصدقوا . . وهل عرفوا أَنهم كانوا على ضلال . . وهل تحقق لهم وعد الله ؟ أَم لا زالوا جاحدين مكذبين ..

« وَنَادَى أَصْحَابُ الجَنَّةِ أَصحَابَ النَّار : أَنْ قَد وَجَدْنَا مَا وَعَدَنا رَبَّنَا حَقّاً ، فَهَلْ وَجَدْتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً؟ قَالُوا نعَمْ . فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنهُمْ : أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى

(١) سورة الصافات ٥١ ــ ٥٩

الظَّالِمِين ، الَّذِين يَصُدُّون عَنْ سَبِيل الله وَيَبْغُونَهَا عِوجاً وَهُمْ بالآخِرَةِ كافِرُونَ (١) » . .

• • •

ويحمد المؤمنون ربهم الكريم ويذكرون فضله ، « وَقَالُوا : الحَمْدُ لِلهِ الَّذِي هَدَانَا لِهٰذا وما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَولاَ أَنْ هَدَانَا اللهُ ، لقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحَقِّ ، ونُودُوا أَنْ تِلكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢) » .

بكل هذه المشاهد ، وبغيرها في القرآن الكريم تستيقظ مشاعر المسلم ويتحرك وجدانه ، فيطالع الغيبَ ويتصور المستقبل ويعمل لدنياه غير مفتون ولا مغرور ولآخرته غير غافل ولا عابث ، وهذا سر الإيمان وأثره في حياة الإنسان .

---

(١) سورة الأعراف ٤٤ ، ٤٥ (٢) سورة الأعراف ٤٣

مؤمن بالقدر

يدرك المسلم أنه ليس مخلوقاً هملا ولا متروكاً سدى ، وأن للكون رباً يصرف أحواله فيه بما يريد ويجعل للحياة غاية تصل إليها ومقادير يحيط بها .

. . « مَاأَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ واللهُ بكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ (١) » ..

* * *

والمسلم يؤمن بأن الله يعلم مصائر العباد ويحيط بأحوالهم ويدير أمورهم فلايقع في الكون شيء إلا بإذنه ، ولا يصيب الناس نفع ولا ضرر إلا بإرادته وقدرته . .

وذلك معنى إيمانه بالقضاء والقدر . .

فهو لا يرى الكون بحراً تضطرب فيه الأمواج ، ولا مصطرعاً لا يحكمه قانون .

بل إن له من ضوابط القدرة الإلهية ما يجعل كل

---

(١) سورة التغابن ١١

شيء فيه حساب ، وما ينظم فيه الأحوال فلا فوضى ولا اضطراب . .

« إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدر (١) » . .

« مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (٢) » . .

* * *

والمسلم يؤمن أن القدر أحاط بمواهب العباد ومصائرهم على نحو دقيق ، فالصحة والمرض ، والثراء والفقر ، والنعم والمصائب والأفراح والأحزان ، ونهاية الأجل ومكان الموت وكل ما يتصل بحياة الناس مما لا يملكون فيه تصرفاً ، ولا يستطيعون له تحويلاً ولا تبديلاً ، مما اختص به القدر وأحاط به علماً . .

فلا يمكن أحداً أن يخرج عما قدره الله له في ذلك ، ولا أن يبدله كما يريد بل إن الإرادة الإلهية وحدها هي

---

(١) سورة القمر ٤٩ (٢) سورة الحديد ٢٢

التي تعمل عملها في الكون وفق علم الله وحكمته وتقديره لخير العباد . .

* * *

والإيمان بالقدر في هذا الجانب هو الذي يحمي المسلم من القلق ، ويعصمه من الجزع والحسرة ، إذا تبدلت به الأحوال بين النعمى والبؤسَى .

فالمسلم يتقبل أحداث الحياة بنفس راضية ، تعلم أن هناك قدرة عليا لها العلم والأمر ، تختار له وتبغي له حسن العاقبة في الدنيا والآخرة : « قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إلاَّ مَاكَتَبَ اللهُ لَنَا هوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ(١)»

وهذا اليقين بالقدر يجلب الطمأنينة إلى النفس فلا تتقلب مشاعرها ولا تلعب بها حوادث الحياة كما يقول سبحانه « لِكَيْلَا تأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢) » . .

* * *

والمسلم يؤمن بأن علاقة القدر بأفعال العباد ،

---

(١) سورة التوبة ٥١ (٢) سورة الحديد ٢٣

واتجاهاتهم بين الخير والشر ، والطاعة والمعصية يختلف عن علاقته بمواهبهم ومصائرهم . .

فإن موقف الإنسان من الطاعة والمعصية ليس كموقفه من الأَجل والرزق . فالإنسان السَّويّ يشعر أَن له إرادة وقدرة في الاتجاه إلى طريق الطاعة أَو إلى طريق المعصية ، ولا يجد نفسه مرغماً على سلوك أَي منهما ، ولكن الموت قدر محض ، لا إرادة للإنسان فيه ، ولا قدرة له على دفعه وكذلك الرزق في ضيقه أَو سعته . .

أَما المعصية التي يحاسب عليها الإنسان فإنها لا تقع منه إلا وهو مستيقظ الإرادة بعد عزم وعمد ، فلا يحق له بعد ذلك أَن يجادل بالباطل ويزعم أَن ذلك قضاءُ قدر لا اختيار له فيه ولا إرادة . .

وغاية الأَمر أَن عِلم الله القديم قد أَحاط بأَعمال العباد ما كان منها وما سيكون . .

ولكن هذا العلم لا مدخل له في اتجاه البشر ، الذي يصدر عن اختيار وحرص . .

* * *

وذلك هو موقف القضاء والقدر من أفعال العباد ، واتجاههم بين الخير والشر . .

فالمسلم الحق يسدد عمله ، ويحكم خطته في اتجاهه في الحياة . .

ويعلم أن الله سبحانه قد منح الإنسان إرادة وقدرة ، وترك له الاختيار بين الهدى والضلال وتلك مسئولية الإنسان : « فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (١) » . وبين له أسباب النجاة وأسباب الهلاك . . « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَينِ (٢) » . .

وذلك يؤكد أن الإرادة الإنسانية حرة ، ولها أن تتجه كما تشاء ، ما دام للحساب يوم ، وما دام كل إنسان سيلقى ثمرة سعيه في الحياة . .

ومدار الأمر على الاختيار والإيمان ، فهو أساس التوفيق أو الخذلان .

وعمل الإرادة الإلهية في موقف الناس من الحياة وسعيهم فيها : أنها تيسر كل إنسان إلى ما يبتغيه ، فمن

---

(١) سورة الكهف ٢٩ (٢) سورة البلد ١٠

سار في الطريق المستقيم انتهى إلى غايته في الدنيا والآخرة.. « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (١) » . .

ومن اختار طريق السوء وصل إلى مبتغاه « وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (٢) »

فالهداية والضلال مرتبطان بأسبابهما من الاتجاه إلى الحق أو إلى الباطل .

وليست هناك طائفة من الناس يقدّر الله لها الهداية دون اختيار منها ، وطائفة أخرى يكتب عليها الضلال دون أن تسعى إليه ، كما يظن الجاهلون .

وإنما يهدي الله سبحانه إلى الحق من طلبه ، ويضل عنه من أغمض عينه وأصم أذنه . . كما قال سبحانه : « وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ في الأَرْضِ » (٣) . . فعنصر الاختيار الإنساني بارز في كل مصير وعلى أساسه تقوم عدالة الجزاء وأمانة الحياة . .

---

(١) سورة الليل ٤ — ٧ (٢) سورة الليل ٨ — ١٠
(٣) سورة البقرة ٢٦ ، ٢٧

وذلك هو معنى قوله تعالى : « كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » (١) . .

* * *

والمسلم يعلم أن الذين يحاولون أن يثبتوا أن الإنسان مقهور مجبور ، لا إرادة له ولا اختيار ، إنما يريدون أن يُسْقطوا عن أنفسهم التكليف ، وأن يطلقوا لشهواتهم العنان دون تقيد ولا مبالاة ، متعللين بالمقادير ، ومعتذرين بالمعاذير . .

ولكن ذلك لن يعفيهم من حساب الخبير البصير ، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . .

والمسلم الحق لا يجادل بالباطل ، بل يتخذ لنفسه سبيلاً إلى ربه ، ويحاسبها على عمله وكسبه ، ولا يخدع نفسه بالأكاذيب فإن الحقيقة لا تخفى . . « بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ » (٢) . .

وقد كان التعلل بالأقدار والجدل حولها طابع الكافرين الذين كانوا يحتجون بالواقع ويزعمون أن الله سبحانه

---

(١) سورة المدثر ٣١ (٢) سورة القيامة ١٤ ، ١٥

رضي عنهم بالشرك ولو شاء لحملهم على التوحيد :« وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ (١) » . .

وهذا جدل عقيم ومغالطة مفضوحة يُهدر فيها الإنسان إرادته ويتجاهل عقله ويصم أذنه عن نداء الهداية ، وليس وراء ذلك إلا الضياع والشقاء . .

أما المسلم الحق ، فهو يؤمن بالقدر حق الإيمان ، بلا جبر ولا جحود ، ويفصل بين ما أراده الله له فيفوضه إليه ، وبين ما أراده منه ، فيحسن العمل فيه ، فالإيمان بالقدر ركن متين في عقيدة المسلم ، يملأ نفسه طمأنينة ويكسبه القوة في مواجهة الحياة ، وصدق رسول الله :

« لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع : يشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله بعثني بالحق ، ويؤمن بالموت ، ويؤمن بالبعث بعد الموت ويؤمن بالقدر » .

---

(١) سورة النحل ٣٥

(٢) أخرجه الترمذي .

مصدّق بالملائكة

يتسع نظر المسلم فيرى في الكون مالا يراه سواه من الجاحدين الغافلين ، ويؤمن بما أخبره به الحق سبحانه من عوالم خلقه التي لا تراها العيون . . والإيمان بالملائكة أجلى مظهر لروحية المسلم وإيمانه بالغيب ، فترق مشاعره وتسمو نفسه إلى آفاق الكمال . . وذلك أصل من أصول العقيدة الإسلامية التي لا يصح الإيمان إلا بها .

« آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِهِ والمُؤْمِنُونَ كُلٌ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِن رُسُلِهِ وقَالوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » (١) . .

« وَلَكِنَّ البِرَّ مَنَ آمَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ والملائِكَةِ وَالكِتَاب وَالنَبِيِّينَ » (٢) . .

* * *

والمسلم يؤمن بأن الملائكة خلق كريم من خلق الله

---

(١) سورة البقرة ٢٨٥ (٢) سورة البقرة ١٧٧

من غير طبيعة الإنسان ومن غير طبيعة الجان ، فقد خلقوا من نور ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « خُلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار (١) » فهم من عالم غير محسوس يختلف في طبيعته عن عالم الشهادة.

وليس في طبيعة الملائكة الاتجاه إلى المعصية ، بل هم مفطورون على الطاعة الدائمة : « لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » (٢) . .

* * *

وعلاقة الملائكة بالبشر علاقة لطيفة يَطبعها الحب والإشفاق ، وقد عرض القرآن من ذلك الكثير ، فهم يسألون ربهم المغفرة لأهل الأرض والتجاوز عن سيئاتهم.

« وَالمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ . . » (٣) . كما يبتغون الرحمة والإكرام للمؤمنين ، ويسألون الله لهم الغفران : « الَّذِينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً

(١) رواه مسلم — (٢) سورة التحريم ٦
(٣) سورة الشورى ٥

وَعِلْماً ، فاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الجَحِيم رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ . وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ، وَذلِكَ هُوَ الفوْزُ العَظِيمُ » (١) . .

وهم يتنزلون على المؤمنين في الدنيا للتأييد والنصرة : « إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلىٰ المَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا . . » (٢) . .

كما يتنزلون على المؤمنين ساعة الموت للبشرى والإيناس: « إِنَّ الَّذِينَ قالوُا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ أُستَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلَائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالجَنَّةِ التِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ . .» (٣) . .

فهذه عاطفة خالصة بريئة من المصلحة منزهة عن شوائب المادة إذ هي علاقة الإيمان والخير والصفاء ، تجعل الملائكة قوة خيرة في الكون وجنداً للحق واليقين . .

---

(١) سورة غافر ٧ ـ ٩ (٢) سورة الأنفال ١٢
(٣) سورة فصلت ٣٠ ، ٣١

وللملائكة مهمة عليا ، هي إبلاغ الوحي إلى الرسل .. « اللهُ يَصْطَفِي مِنَ المَلَائِكَةِ رُسُلاً ومِنَ النَّاسِ » (١) . .

« يُنَزِّلُ الملائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ » (٢) . وجبريل عليه السلام هو أمين الوحي الذي اصطفاه الله لحمل الرسالات إلى المختارين من عباده .. « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ » (٣) .

وهم الذين يقبضون أرواح العباد : « قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ المَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ » (٤)

ومن الملائكة حفظة موكلون ببني آدم : « إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ » (٥) . .

كما أن منهم موكلين بتسجيل أعمال الإنسان وأقواله : « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ » (٦) . .

---

(١) سورة الحج ٧٥
(٢) سورة النحل ٢
(٣) سورة الشعراء ١٩٣ ، ١٩٤
(٤) سورة السجدة ١١
(٥) سورة الطارق ٤
(٦) سورة الانفطار ١٠ ــ ١٢

وهم بذلك أُمناء على البشر أَجمعين ، في أَطوار حياتهم وفي أَحوال سلوكهم ، وفي أَرواحهم وعقائدهم . فكيف يجحدهم الجاحدين أَو يستهزىء بهم المستهزئون .

والمسلم الحق لا يتجاوز في إيمانه بالملائكة حدود ولا يصنع صنع السفهاء الذين افتروا على الملائكة ومنهم من كان يعبدهم من دون الله .

لقد كان الكافرون يزعمون أن الملائكة إناث ، وأنهم بنات الله . .

ولقد وجه القرآن إلى تلك الجهالة حملة شديدة قضت على أَوهام الكافرين .

يقول الله سبحانه : « وَقالُوا اتَّخَذَ الْرَحْمٰنُ وَلَداً ، سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمونَ . لَايَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ » (١) .

« فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِكَ البَنَاتُ وَلَهُمْ البَنُونَ أَمْ خَلَقْنَا المَلَائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ » (٢) . .

---

(١) سورة الأنبياء ٣٦ (٢) سورة الصافات ١٥٠

ولقد كان الكفار يأنفون من البنات ، ومع ذلك ينسبون إلى الله البنات . . ! وليس لهم بالأمر علم ولا بصيرة ، بل هو ظن وادعاء ، وجهل وافتراء .

« إنْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسمُّونَ المَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثى ، وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إنْ يَتْبعُونَ إلاَّ الظَنَّ وإنَّ الظَنَّ لا يُغْني مِنَ الحقِّ شيئاً » (١) . .

أما الذين عبدوا الملائكة ، فإن الملائكة سيكذبونهم يوم القيامة ، ويبرأون منهم : « وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَميعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أهؤلاءِ إيَاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ ، أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ » (٢) .

* * *

إن المسلم يعلم أن الملائكة أحباب للبشر يرجون لهم الخير ، ويبغون لهم الهداية ، ويشفقون عليهم من العثار والضلال ، وإيمانه بهم يعود عليه بثبات الإيمان وحلاوة اليقين ، وعلاقته بهم هي علاقة التأييد والحب والعون والنصرة ، فتفسح أمامه الآفاق وتتضح الحقائق ، وتسمو الروح ويصح الإيمان

(١) سورة النجم ٢٧ ، ٢٨ (٢) سورة سبأ ٤ ، ٤١

مؤمن بالرسل

يثق المسلم بحكمة الله سبحانه ويوقن بعدله ويطمئن إلى رحمته ، ويعلم أن الله لم يكن ليترك الناس بلا هداية إلى الحق وإقامة للحجة وتوجيه إلى الطريق المستقيم « وَإِنْ مِنْ أُمةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ » (١) .

« يَابَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ، فَمَنِ اتَقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ » (٢) .

ومنذ عاش الإنسان في هذه الأرض يكافح في سبيل الحياة ، كان في سمعه نداء السماء يقول : إن لك إلهاً قادراً ، أنشأك في هذه الأرض واستخلفك فيها ، وجعل لك أجلاً معلوماً ، ثم ينقلك إلى دار أُخرى ، ليجزيك على ما قدمت ، فلتؤمن به ولتخضع لحكمه ، ولتلتزم نهجه ، فإن في ذلك النجاة .

والذين حملوا هذه الدعوة إلى أسماع البشر هم صفوة

---

(١) سورة فاطر ٢٤ (٢) سورة الأعراف ٣٥

من خلق الله اصطفاهم رب العالمين ، ليكونوا عباده المرسلين في الأجيال المتتابعة .

* * *

والمسلم يؤمن بأن إرسال الرسل نعمة من الله على عباده.

فإن تجارب البشر مهما بلغت لا يمكن أن تهديهم إلى سواء السبيل ، ولا أن تدلهم على منهاج الحياة المستقيم . . فإن نظرة البشرية مهما اتسعت فهي قاصرة ، ومهما علمت فهي جاهلة ؛ تدرك من الحقيقة طرفا ويغيب عنها الآخر .

ومن هنا احتاج بنو آدم لهداية الله التي تعصمهم من الضلال ، وترشدهم إلى الحق ، وتوضح لهم آفاق الحياة . .

« قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَيَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا . وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى » . . (١)

---

(١) سورة طه ١٢٣ ، ١٢٤

إن آفاق النفس والحياة لا يحيط بها إلا الله ، لأنه الخالق المبدع والعالم الخبير « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ (١) » .

ومن هنا لا يستطيع الإنسان أن يسلك وحده في شِعاب الحياة ودروبها . . لا بد أن يتعلم كيف يسير . . وكيف يواجه الأحداث . . لا بد أن يعلم من أين وإلى أين . . ولا بد أن يدرك ما هي أهداف الوجود . . وما هي غاية الحياة . . وما هي مهمته في دنياه . .

وبهذا العلم وهذه المعرفة يقوم بناء الحياة ويتحقق نظامها ، وتسودها العدالة ، وتتجه إلى سبيل القويم . . « لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ (٢) » . .

فهل تعلَّم البشر من الأنبياء ، وهل انتفعوا برسالات السماء ؟

« يَا حَسْرَةَ عَلَى العِبَادِ ، مَا يأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئونَ ! (٣) » .

* * *

(١) سورة الملك ١٤ (٢) سورة الحديد ٢٥
(٣) سورة يس ٣٠

وبإرسال الرسل قامت حجة الله على العباد ، واتضحت معالم الحقيقة وتميز النهج لمن يريد المسير ، ولم يعد لأَحد عذر في تنكّب الطريق والتردي إلى الهلاك .

فلقد نادى الرسل بالحق ، ودعوا إلى صراط الله ، وصبروا على الأَذى والتكذيب ولاقوا الأَهوال في سبيل هداية البشر وإبلاغ الوحي إليهم . .

فأَي حجة بعد ذلك للجاحدين ، الذين أَصموا آذانهم وأَعموا أَبصارهم وقابلوا دعوة الحق بالتكذيب والاستهزاء . . ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لَئِلاَّ يَكُونَ لِلْناسِ عَلى اللهِ حُجةٌ بَعْدَ الرُسَلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيَماً﴾(١)

* * *

والمسلم يعلم أَن تاريخ الأَنبياء تاريخ فريد . . وأَن أَقدارهم فوق كل بطولة وزعامة وعبقرية . .

فمن فجر التاريخ ورسالات الأَنبياء تكافح الجحود والكفران ، وتصارع البغي والطغيان ، وتحاول أَن تثبت في الأَرض دعائم الطمأْنينة وأَسباب السلام . .

---

(١) سورة النساء ١٦٥

ولقد وهب هؤلاء الرجال الكرام من صفوة خلق الله أنفسهم في سبيل إنقاذ الإنسانية ، وإبعادها عن مهاوي الهلاك . .

لقد كانت تغمر قلوبهم عواطف نبيلة نحو الإنسانية منزهة عن كل شائبة ، فكانوا يألمون حين يرون الناس يتنكبون الطريق المستقيم ، ويزيغون عن سبيل النجاة . . فهذا شعيب ينادي قومه :

« .. يَاقَوْمِ أَعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غيرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِكُمْ ، فَأَوفُوا الكَيْلَ والمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تُفسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١) » . .

إن هذه الدعوة تجمع أسباب الحياة القويمة وأساس عمران الأرض ، ولا منفعة لشعيب فيها ولا غرض له من ورائها ، ولكن قومه يجيبونه موعدين : « لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ في مِلَّتِنَا (٢) » .

---

(١) سورة الأعراف ٨٥ (٢) سورة الأعراف ٨٨

وهكذا كانت السُّنة العامة هي أَن يواجه الأَنبياء بالتكذيب والصد ، والاضطهاد والحرب .. « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكُ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١) » .

وكان ذلك الجهاد والصبر في سبيل الحق سبباً من الأسباب التي رفعت أَقدار الأنبياء وأَعلت في ميزان التاريخ مكانتهم .

والعجيب أَن موقف الأُمم جميعاً من أَنبيائهم لم يتغير على مر التاريخ . .

فكل قوم استنكروا أَن يكون الرسول بشراً ، وكانوا يظنون أَنه لا يكون إلا ملَكاً من السماء لا بشراً من الأَرض . . « قَالُوا إِنْ أَنتم إلاَّ بَشرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أَن تَصُدّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ، فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ(٢) » .

وذلك ضلال بعيد ، يصدر عن جهل بحقيقة الدين ومعني الرسالة .

فلن يستطيع إبلاغ رسالة الله إلى الناس إلا بشر أمثالهم . .

---

(١) سورة الحجر ١٠ (٢) سورة إبراهيم ١٠

إذ أَن سكان الأَرض بشر لا ملائكة ، فكان من عدالة الحق ومن سنة الوجود أَن يكون رسولهم من جنسهم وطبيعتهم . . « قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ مِطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً (١) » .

فطبيعة الدعوة تقضي أَن يكون الرسول بشراً يمكنه الإقناع والبيان ، وليكون لقومه من خلقه وعمله قدوة حسنة ، ومثل أَعلى للسلوك المستقيم . « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ . . (٢) » « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (٣) » . .

ولكن الجاحدين كانوا يكذبون المرسلين ، ويقولون : « . . لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنْزَلَ مَلاَئِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرونَ (٤) » .

* * *

بل إن التهم التي وجهت إلى المرسلين من طوائف الضالين كثيراً ما تشابهت حتى في كلماتها وأساليبها . .

فحين بُعث محمد صلوات الله عليه رماه الكافرون

(١) سورة الإسراء ٩٥
(٢) سورة إبراهيم ٤
(٣) سورة الأحزاب ٢١
(٤) سورة فصلت ١٤

بأنه ساحر أو مجنون . .وهي نفسها الفرية التي رُمي بها الأنبياء قبله . .

كما يقول الله سبحانه : « كَذَلِكَ مَا أَتى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أو مَجْنُونٌ . أتواصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قومٌ طَاغُونَ (١) » . .

ولقد أيد الله رسله بالمعجزات ، لتدل على صدقهم وتثبت دعواهم ، فللمعجزة دلالة ناطقة على صدق الرسول وثبوت الرسالة . .

واقتضت الحكمة الإلهية أن تكون معجزات الأنبياء متنوعة ، تناسب أقوامهم وتساير عصورهم ، فموسى عليه السلام تغلب على سحرة قومه ، وعيسى كان يبرىء المرضى ويحيي الموتى بإذن الله ، وكل نبي كانت له معجزات تقنع قومه وتجمعهم على الإيمان .

أما محمد صلوات الله وسلامه عليه فقد كانت معجزته الخالدة هي القرآن الكريم . . معجزة العقل والعلم ،

---

(١) سورة الذاريات ٥٢ ، ٥٣

لتناسب تقدم البشرية واتساع آفاقها ، وبلوغها مرحلة الرشد والنضوج . .

* * *

وقد كان في سلوك الأَنبياء مع أقوامهم دليل قاطع على صدق دعواهم وشرف غايتهم ، وتنزههم عن الهوى والمنفعة . .

وإلا فماذا كان يحملهم على عناء الدعوة ، وهذا الحرص الشديد على هداية البشر ، مع أَنهم لا يرجون لأَنفسهم نفعاً ولا يبتغون من الناس ثواباً ؟

لقد لاقوا الوعد والوعيد بإجابة لم يختلف معناها على اختلاف الأَجيال . . فقد أَعلنوا جميعاً أَنهم لا يريدون أَجراً ولا يطلبون مغنما . . فلا مكان للمساومة على المبدأ ولا مخالفة للوعيد . . « وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيهِ مِنْ أَجْرٍ إنْ أَجرِيَ إلاَّ عَلىٰ رَبِ العَالَمِينَ . (١) » . . « وياقَوْمِ لا أَسأَلكُمُ عَلَيهِ مَالاً ، إنْ أَجرِيَ إلاَّ عَلىٰ اللهِ » (٢) .

وقد وقفوا جميعاً موقف البطولة والتضحية ، ولم يصدّهم عن الدعوة شدة الأَذى والحرب : « وَمَا لنَا إلاَّ

---

(١) سورة الشعراء ١٠٩ (٢) سورة هود ٢٩

نَتَوَكَّلُ عَلَى اللهِ وقَدْ هدانَا سُبُلَنا ، وَلنَصْبرَنَّ عَلى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلى الله فَليَتَوكلِ الْمُتَوكِلُونَ (١) » .

* * *

وقد كانت سنة الله تقضي دائماً بأن يكون النصر للأنبياء ورسالات الأنبياء ، مهما بلغت قوة الجاحدين ومهما طالت حرب المبطلين : « إنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُنْيَا وَيَوْمَ يُقُومُ الأَشْهَادُ (٢) » . . « كتبَ اللهُ لأَغلِبَنَّ أَنا ورسُلي إنَّ الله قَويٌ عزيز (٣) » . . « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إنَّهُمْ لَهُمْ الْمَنْصُورُونَ وَإنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ » (٤) .

وهاهو التاريخ الطويل شهيد على صدق الوعد الإلهي ، وتحققه في كل العصور ، مما يجعله حقيقة لا تتبدل وسنة لاتختلف . فقد فشل الطغاة المكذبون في أن يطفئوا نورالله ، وعجزوا عن صدّ الناس عن صراطه المستقيم . .

وذهبوا عن الدنيا أذلاء ، ليعيشوا في الآخرة أشقياء ملعونين .. « وأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الْدُنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ القِيَامَةِ(٥)»

---

(١) سورة إبراهيم ١٢
(٢) سورة غافر ٥١
(٣) سورة المجادلة ٢١
(٤) سورة الصافات ١٧٢ ، ١٧٣
(٥) سورة هود ٦٠

وأعلى الله راية الحق ، وجعل العزة للمهتدين : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ، وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١) » .

* * *

إن المسلم يؤمن بالأنبياء جميعاً ويعلم أن ذلك أصل من أصول الإيمان .

« آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيهِ مِنْ رَبِهِ وَالمُؤْمِنُونَ كُلٌ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ (٢) »

أما الإيمان ببعض الرسل والكفر ببعض . فهو تعصب مقيت يفسد العقيدة ويحبط العمل .

فالمرسلون أسرة واحدة ، تربطهم قرابة العقيدة وصلة الإيمان وكلهم دعا إلى عبادة الله وتوحيده : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُول إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٣)».

---

(١) سورة إبراهيم ١٣ ، ١٤ (٢) سورة البقرة ٢٨٥
(٣) سورة الأنبياء ٢٥

فكيف يفرق الجاهلون بين المرسلين ، وكلهم دعا إلى الله وحمل رسالته ؟! إن هذا كفر لا يتفق مع دين ، ولا يوصل إلى يقين . . « إِنَّ الَّذِين يَكْفُرُون بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُون أَنْ يُفرِقُوا بَيْن اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُون نُؤْمِنُ بِبعْضٍ وَنكْفُرُ بِبِعْضٍ وَيُرِيدُون أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْن ذٰلِكَ سَبِيلا ، أُولٰئِكَ هَمُ الكافِرُون حَقًّا وَأَعْتدْنا لِلْكافِرِين عَذاباً مُهِيناً (١) » .

والمسلم يؤمن بالأنبياء والمرسلين الذين ذكروا في القرآن بأسمائهم ، وهم خمسة وعشرون رسولا . .

آدم ونوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وإدريس وإلياس وإسماعيل واليسع ويونس ولوط وصالح وهود وشعيب وإسماعيل وعيسى ومحمد ، عليهم صلوات الله وسلامه .

كما يؤمن المسلم بأن هناك رسلا آخرين بعثهم الله إلى الناس لم تذكر أسماؤهم في القرآن ، كما يقول الله

---

(١) سورة النساء ١٥٠ ، ١٥١

سبحانه : « وَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ » (١) .

وهكذا يجمع المسلم ولا يفرق ، ويبرىء إيمانه من العصبية والجحود . .

* * *

ولقد أنزل الله على رسله كتباً سماوية تحوي حقائق الدين وتجمع أحكام الشرائع .

وقد أخبرنا القرآن بأربعة كتب سابقة أنزلت على أربعة من المرسَلين .

التوراة على موسى . .

والإنجيل على عيسى . .

والزبور على داود . .

والصحف على إبراهيم . .

« إنَّا أَنْزلْنَا التوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ . . » (٢) .

---

(١) سورة غافر ٧٨ (٢) سورة المائدة ٤٤

« وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ بعيسى ابنِ مَرْيَمَ مُصَدِقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِن التَوْرَاةِ وَآتيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً ونورٌ»(١)

« وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً » (٢) .

« أَم لم يُنبَّأْ بما في صُحُفِ موسى ، وإبراهيمَ الذي وَفَّى » (٣) .

فتلك كتب أربعة . .

والذي بقي منها بين الناس كتابان : التوراة والإنجيل

وقد بين الله أن اليهود قد حرفوا التوراة ، كما أن النصارى بدّلوا الإنجيل .

فهو يقول عن اليهود : « . . يُحَرِفُون الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ » (٤) .

ويقول عن النصارى : « وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ » (٥) .

والذي أنزله الله على عيسى هو إنجيل واحد ،

---

(١) سورة المائدة ٤٦
(٢) سورة النساء ١٦٣
(٣) سورة النجم ٣٦ ، ٣٧
(٤) سورة النساء ٤٦
(٥) سورة المائدة ١٤

لا أَناجيل متعددة ، فالله سبحانه يقول : « وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ » (١) .

وقد جاءَ القرآن ، وهو آخر كتاب من السماءَ ، مصدقاً لحقائق الكتب قبله ، ومبطلا للأَكاذيب التي أَشاعها المفترون ، ومبيناً للحقيقة التي ضلت عنها البشرية في كثير من العصور .

يقول الله سبحانه :

« وَمَا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الكِتَابَ إلاَّ لِتُبيِّنَ لهُمْ الَّذِين اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْم يُؤْمِنُونَ » (٢) .

فالقرآن لم ينقل من الكتب السابقة شيئاً ، كما يدعي المفترون ، ولكنه يصدق ما فيها من حق ، ويهدم ما أَلصق بها من باطل ، فهو المرجع الصحيح الذي تؤخذ منه الحقائق ، وتُنَفى به الأَباطيل ، كما يقول الله سبحانه :

« وأَنْزَلْنَا إليْكَ الكِتَابَ بِالحَق مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ . . » (٣) .

(١) سورة المائدة ٤٦
(٢) سورة النحل ٦٤
(٣) سورة المائدة ٤٨

والمسلم يؤمن بما أنزل الله من كتاب ، ويعتقد أن القرآن هو الحجة الباقية ، وهو الكتاب الخالد الذي لم يلحقه تحريف ولم يلصق به باطل ، فقد حفظه الله وسيحفظه إلى آخر الزمان . .

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » (١) .

* * *

ويعلم المسلم أن هؤلاء الرسل الكرام صفوة خلق الله..

وقد ميزهم الله سبحانه بخصائص عليا تعينهم على أداء واجبهم وحمل رسالتهم . . ولكنهم لم يخرجوا عن حدود البشرية ، ولم يتعالوا على واقع الحياة . .

فالأنبياء معصومون من نزعات السوء وسقطات الشهوة والطمع . . كما أنهم متصفون بكمال الخلق وسناء العقل ، وقد كانوا أمثلة سامقة في علو الهمة وطهارة النفس ونقاء السريرة .

« أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ . .» (٢) .

---

(١) سورة الحجر ٩ (٢) سورة الأنعام ٩٠

والمسلم يؤمن بالنبيين جميعاً لا يفرق بين أحد منهم ، كما يؤمن بالرحمة المهداة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاتم النبيين وآخر المرسلين .

« مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَم النَّبِيِّينَ (١) » . .

وهداية المسلم إلى الحق واستقامته على الطريق تنبع من إيمانه بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ومتابعته لخطاه وتأسيه بهديه القويم : « لقد كان لكم في رسولِ الله أُسوةٌ حسَنة ، لمن كان يرجو الله واليومَ الآخر وذَكَرَ الله كثيراً » .

لقد كانت الدنيا في حاجة إليه حين اختلت أوضاعها واضطرب نظامها ، فسادت الأَرض قوى البغي والطغيان وتولى قيادة العالم من لا خلاق لهم ولا إيمان ، فأَرسله الله سبحانه ليصلح من الحياة ما فسد ، ويقيم ما اعوجّ ، وليضع في الأَرض قواعد السلام ، وأَساس الحرية والعدالة : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالمِين (٢) » .

* * *

(١) سورة الأحزاب ٤٠ (٢) سورة الأنبياء ١٠٧

وقد كان من حكمة الله سبحانه أن يبعث محمداً صلوات الله عليه في جزيرة العرب ، إذ كانت أصلح بيئة تظهر فيها تلك الرسالة الجديدة ثم تشع منها في أنحاء الأرض « لتنذر أمَّ القُرى ومن حولها » .

فلم يكن فيها مَلك ذو سلطان ، ولا دولة ذات سيادة ، بل كان العرب يعيشون في حرية تامة وفق نظام القبيلة ، وفي هذا النظام ما يكفل للنبي النصرة والحماية ، كما كان في العرب فضائل تقربهم من الإسلام . . .

* * *

والمسلم يؤمن بأن معجزة محمد ـ صلوات الله عليه ـ الخالدة هي القرآن الكريم الذي تحدى به الفصحاء والبلغاء . .

ولا ريب في أن القرآن كلام رب العالمين ، فهو حق لا يلحقه زيف ولا يأتيه باطل : « لَا يأتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيد(١) ».

فألفاظ القرآن ومعانيه شيء فوق قدرة البشر ،

(١) سورة الإسراء ٨٨

بعيد عن متناول الخلْق جميعاً : « قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتْ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يـأْتُوا بِمِثْلِ هَذا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلوْ كان بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (١) .

وقد اتهم المشركون رسولَ الله بـأَنه يؤلف القرآن أَو ينقله عن الأَعجميين أَو الأَولين .

ولكن آيات القرآن تنزلت تتحداهم في قوة ، وتجادلهم في صراحة ، وتطالبهم أَن يـأْتوا بمثله إِن كانوا صادقين . . « وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَة مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين (٢) » .

لكن العرب لم يستصيعوا أَن يـأْتوا بمثل القرآن ، أَو آية واحدة منه ، وأَقروا بـأَنه من عند الله . . « فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ ، وَلكِنَّ الظَّالِمِين بِآياتِ اللهِ يَجْحَدُونَ »(٣).

ولم يجدوا أَمامهم إِلا طريق العنادوالجهالة في محاربة القرآن ، بعد أَن يئسوا أَن يـأْتوا بمثله وعلموا أَنه منزل من عند الله .

---

(١) سورة فصلت ٤٢ (٢) سورة البقرة ٣٣

(٣) سورة الأنعام ٣٣

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذا الْقُرْآنِ وَالغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (١) » . .

* * *

ومحمد صلوات الله عليه رسول إلى الناس كافة . .

« قُلْ يَاأَيُّها النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِليْكُمْ جَمِيعاً(٢) ».

وتلك ميزة اختصه الله بها بين الأنبياء . . فقد كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة أما هو فقد بعث إلى الناس كافة . . كما يقول عن نفسه : « وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة (٣) » أي إلى العالم كله . .

ولهذا فقد بلَّغ الرسول صلوات الله عليه دعوته إلى غير العرب في الشام والعراق ومصر وغيرها ؛ بما كان يرسله من كتب إلى ملوك هذه الأقطار . .

ومن بعده حمل خلفاؤه راية الإسلام في كل مكان . .
فهو رسول الإنسانية وقائدها الهادي إلى آخر الزمان.

* * *

(١) سورة فصلت ٢٦ (٢) سورة الأعراف ١٨٧
(٣) رواه البخاري .

وهو ـ صلوات الله عليه ـ خاتم النبيين . .

فليس بعده نبوة ولا رسالة ، فرسالته قد جمعت أُصول الهداية التي تستجيب لحاجة الإنسانية في كل زمان . فهو قد أكمل البناء وختم الرسالات كما يقول عن نفسه :

« إنما مثلي ومثل الأَنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأَحسنه وأَجْمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلاَّ وضعت هذه اللبنة؟ قال : فأَنا اللبنة ، وأَنا خاتم النبيين (١) » .

والمسلم يوقن أَن رسالة الإسلام تمثل مرحلة الكمال والنضج في حياة البشرية . . ومهما تطورت الدنيا وتغيرت الأَوضاع وتقدمت الحضارة ، فالإسلام يستجيب لهذا كله ولا يقصر عنه ، بل يقدم حلا لكل مشكلة ، ودواءً لكل داء . .

ومحور الخلاف بين الاسلام وبين أَعدائه في هذا الزمان أَنهم يريدون للدنيا أَن تنتكس إلى الجاهلية ، وترتد إلى الضلال بينما يريد الإسلام أَن يسير بها إلى الأَمام ، وأَن يرفعها

(١) رواه الشيخان والترمذي .

إلى أسمى آفاق الكمال . . « كِتابٌ أَنْزَلْنَاهُ إليْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِن الظُّلُمَاتِ إلىٰ النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إلى صِراطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ (١) » . .

* * *

ولقد كان لمحمد صلوات الله عليه من كرم الخلق وعظمة النفس ، وطهارة السيرة ما يكفل تصديقه ، ويحمل على اتباعه . .

ولكن الرسالة التي جاء بها ، وما تحمله من ثورة على الفساد ، وما تدعو إليه من تغيير في تكوين الفرد وأوضاع المجتمع ، جعلت الكافرين يقفون في وجهه ويصدون عن سبيله : « فإِنَّهُمْ لَا يُكذِّبُونَكَ وَلكِنَّ الظالِمين بآياتِ اللهِ يَجْحَدُون (٢) » . .

فما زال يجاهد ويصبر حتى جاءه نصر الله . . « إذا جاءَ نصرُ اللهِ والفتحُ ورأيتَ الناس يدخلون في دينِ اللهِ أفواجاً ، فسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِكَ وَاسْتغْفِرْهُ إنَّهُ كان توّاباً » (٣) . .

* * *

(١) سورة إبراهيم ٢ (٢) سورة الأنعام ٣٣
(٣) سورة النصر .

إن المسلم الصادق يملأ قلبه بحب رسوله صلوات الله عليه ، ويتخذه مثلا أعلى ، وأسوة حسنة يقتدي بأخلاقه ويتابع سننه ، ويحيط بسيرته ، فهو الرحمة المهداة ، والحجة البالغة والمثل الكامل للإنسانية في أرفع درجاتها وأكمل معانيها . .

والمسلم لا يعدل برسوله العظيم أحداً ، ولا يقيس به غيره من المصلحين أو العباقرة ، ففيه كمال البشر وهداية السماء . . (لقد كان لكم في رسولِ الله أُسْوةٌ حسنةٌ » . .

وتلك حقيقة الحب الصحيح ، التي تورث الاقتداء ، والاهتداء ، وتسدد خطى المسلم على هدي السماء .

صِلَةُ المسلِم بربّه

عابد لربه

حين يؤمن المسلم بربه فلابد من صلة بينه وبينه ، تربط المخلوق بخالقه وتملأ قلبه بالطمأنينة واليقين ، فيحس بأنه ليس وحده في هذه الدنيا ، بل إن معه واهب القوة والقدرة ، وقيوم السموات والأرض .

« الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ ، أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (١) » .

والمسلم يعبد ربه ويتقرب إليه بمنهج دقيق ، لا تطغي فيه الدنيا على الآخرة ، ولا الآخرة على الدنيا ، وذلك من إعجاز الإسلام ، وصدق نظرته للحياة . .

والصلاة هي الوسيلة المنظمة التي حددها الإسلام ليتصل المخلوق بخالقه خمس مرات في كل يوم وليلة ، فيشعر برقابته عليه ، ويجدد معه العهد ويستمد منه العون ويؤكد له الإنابة والخضوع . . « وَإِذَا سَأَلَكَ

(١) سورة الرعد ٢٨

عِبَادِي عَنِّي فإنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الْدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ » (١) .

وقد بين القرآن أن الصلاة صفة من صفات المؤمنين ، وعنصر ضروري في شخصية المسلم . .

فالمؤمنون هم : « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الْصَّلاَةَ (٢) » .

وهم : «الذين إنْ مكّناهم في الأَرضِ أقاموا الصلاة»(٣)

وقد أمر الله المؤمنين جميعاً بإقامة الصلاة والحرص عليها . .

« قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاَةَ » (٤) . .

بل إن القرآن قد حث الرسولَ ـ صلوات الله عليه على إقامة الصلاة والصبر عليها ، وإلزام أهله بها . « أَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى للذَّاكِرِينَ » (٥) . . « وأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا » (٦) .

---

(١) سورة البقرة ١٨٦
(٢) سورة البقرة ٣
(٣) سورة الحج ٤١
(٤) سورة إبراهيم ٣١
(٥) سورة هود ١١٤
(٦) سورة طه ١٣٢

فهل يجد المسلم مناصاً من إقامة الصلاة أو عذراً في إضاعتها ؟!

* * *

والمسلم يعلم أَن الصلاة ليست مجرد أَقوال وأَفعال تؤدّى بلا وعي ولا تدبر . .

بل إن لها هدفاً لابد أن يدركه المصلي ، حتى يستفيد من الصلاة ويصل إلى الغاية منها ، وحتى تنتقل إلى عالم الشعور وتصبح منهجاً من مناهج التربية .

فالقرآن يبين أَن الصلاة التي تؤدّى على وجهها الصحيح ، من سلامة الأَركان ، ومن خشوع القلب ، ومن التدبر فيما يناجي به المصلي ربه ، لا بد أَن تصل بصاحبها إلى كرم الخلق وطهارة النفس ، فينتهي عن المعصية ويبتعد عن الفساد ، وينشأُ في نفسه وازع يربطه بالحق . ويبتعد به عن الباطل . .

يقول الله سبحانه : « وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَر » (١) . .

* * *

(١) سورة العنكبوت ٤٥

إن الصلاة في حقيقتها وسيلة من وسائل التربية الإسلامية التي تغرس في قلب المسلم حقيقة الإيمان ، وتؤسس فيه الشعورَ الصادق برقابة الله عليه ، وتعوده على طاعة أمره وامتثال حكمه والمبادرة إلى فرائضه . .

والمسلم يكتسب منها ثبات العقيدة وطمأنينة القلب ، والقوة في مواجهة أحداث الحياة . .

فالإنسان بطبعه يجزع حين يمسه اليأس ، فينهزم ويغشاه اليأس وتغمره الكآبة . . كما أنه بطبعه يتبطر ويفخر إذا مسه الخير وأحاطت به النعماء ، فيطغى وينسى حق الضعفاء . .

ولكن المسلم الذي يقيم الصلاة على حقيقتها ، ويتدبر معانيها ، يكتسب من صلاته قوة القلب ، وثبات المشاعر ، فلا يتقلب إحساسه مع تقلب الأيام بين الخير والشر . . بل يقابل الشدائد بوجه باسم وقلب مطمئن ، يعلم أن الله سبحانه هو الذي يغير ويبدل ، وأن قدرته تسيّر الحياة بعلم وحكمة . . كما يعرف حق الله والعباد عليه حين يأتيه الخير وتغمره النعم . . « إنَّ الإنْسَانَ خُلِقَ هَلوعاً إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً

وَإِذَا مَسَّهُ الخَيرُ مَنُوعاً إِلاَّ المُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ » (١) . .

* * *

إنها وسيلة هامة يستعين بها المسلم في مواجهة المصاعب ، وعلى الصبر والثبات في كفاحه في دنياه . فيستمد من ربه العون ، ويستلهم الثقة والطمأنينة . . « وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخَاشِعِينَ (٢) » . .

وهي كذلك تطهر المسلم من الخطايا والهفوات التي لا يتحرز منها بشر . .

فيظل دائماً طاهر القلب بريء المشاعر حي الضمير..

وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أرأيتم لو أنّ نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كلّ يوم خمس مرات ، هل يبقي من درنه شيء ؟ قالوا : لا يبقي من درنه شيء . فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا (٣) » . .

---

(١) سورة المعارج ١٩ — ٢٣ (٢) سورة البقرة ٤٥
(٣) رواه الخمسة إلا أبا داود .

فالصلاة سمة من سمات المسلم ، ومدرسة دائمة لا يزال يتعلم منها حقائقَ الإيمان ويصل بها إلى أعلى درجات اليقين ، فهي ميزان إسلامه وطريق نجاته . .

كما يقول الرسول صلوات الله عليه : « . . ومن يحافظ عليهن ـ أي الصلوات ـ عاش بخير ، ومات بخير ، وكان من ذنوبه كيوم ولدته أُمه (١) » . .

* * *

وفي عصرنا هذا أضاع كثير من المسلمين الصلاة ، وتهاونوا في إقامتها ؛ تبلداً في المشاعر وخموداً للعاطفة ، وجهلاً بالدين ، ولا يعلم الكثيرون منهم أن الذي يضيع الصلاة ليس بمسلم في الحقيقة ، إذ هي الأَساس المتين الذي يرتكز عليه كل معاني الإسلام في نفس المسلم. .

ولذلك بيَّن رسول الله صلوات الله عليه أَن تركها عمداً باب من أبواب الكفر . . فقال « إن بين الرجل والشرك والكفر ترك الصلاة (٢) » . .

وقال : « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر » (٣) . .

---

(١) رواه أبو داود . (٢) رواه الخمسة إلا البخاري .
(٣) رواه الترمذي .

كما بين أن الذي يهمل الصلاة يجب جهاده حتى يؤديها . فقال : « أُمرت أَن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أَن لا إله إلا الله وأَن محمداً رسول‌الله ويقيموا الصلاة(١)»

والواضح أَن المسلم الذي يترك الصلاة يدل على أَنه ليس حريصاً على دينه ، ولا مستعداً للقيام بواجبه وتحمل أَعبائه . .

فالصلاة لا تكلف المسلم إلا لحظات قليلة من وقته في فترات متباعدة في اليوم والليلة . . فإن لم يحرص عليها المسلم مع سهولة تكاليفها ويسر القيام بها ، فلن يحرص على ما سِوَاها من واجبات الإسلام وفرائضه . .

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ حين بعثه إلى اليمن : « يا معاذ إنّ أهم أَمرك عندي الصلاة » وكان عمر بن الخطاب رضوان الله عليه يقول لحكام الأَمصار : « إن أَهم أُموركم عندي الصلاة ، فمن حافظ عليها وحفظها حفظ دينه ، ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أَشد إضاعة » . .

---

(١) رواه البخاري .

فالحافظ على الصلاة ورعايتها مقياس لصدق الإيمان يثمر ثمرته ويعمل عمله في تثبيت العقيدة وتوجيه السلوك .

والمسلم الحق حين يؤدي الصلاة يحسن القيام بها والإفادة منها ، فيظهر أثرها في حياته وتعمل عملها في تهذيب نفسه وتطهير قلبه . .

والعجيب أن بعض الناس ـ في عصرنا ـ يهونون من شأن الصلاة والعبادة عامة ، ويزعمون أن لا نفع لها في الحياة ولا أثر لها في تقويم السلوك ، ناظرين في ذلك إلى الذين يراءون في العبادة فلا يرفعون بها رأساً ولا يصلحون عملا . .

وليست هذه حجة يقنع بها العقل أو يستقيم بها المنطق ، فإن القرآن قد نهى المصلين عن الغفلة عن معاني الصلاة ، وحذرهم من الجهل بحقائقها ونسيان دروسها حتى لا يصيبهم عقاب الغافلين : « فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ ، الَّذِينَ هُمْ يُراؤنَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ » (١) .

(١) سورة الماعون ٤ ـ ٧

فليس الانحراف عن الحق حجة في تركه ، ولا شذوذ البعض داعياً لأن يعم الشذوذ وليست أعمال الجاهلين حجة على هذا الدين .

أما المسلم الحق ، فإنه يعرف طريق الرشاد ويتخذ إلى ربه سبيلا ويجعل من الصلاة معراجاً يرتقي به إلى آفاق الكمال ويتطهر به من الأرجاس والأدناس . .

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول :

« ما من أمرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها ، إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يأت كبيرة ، وذلك الدهر كله(١) » .

---

(١) رواه مسلم .

محبّ لربّه يرجو رحمته ويخشى عذابه

« إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (١) » .

* * *

صلة المسلم بربه تقوم على الحب والرجاء والخشية .

فالمسلم تفيض نفسه بعاطفة الحب نحو خالقه ، لأنه واهب الحياة ، ومفيض النعم ، وصاحب الفضل والإحسان ، الذي خلق فسوّى والذي قدر فهدى .

وإذا كان في طبيعة الإنسان مقابلة الإحسان بمثله ، فكيف لا تمتلىء القلوب بحب الله الذي لا تحصى نعمه ، ولا تنفد عطاياه ؟ . فإن الحياة بما فيها نعمة من الله . .

« وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيهِ تَجْأَرُونَ (٢) » . .

* * *

---

(١) سورة الأنفال ٢ — (٢) سورة النحل ٥٣

إن بين المسلم وربه صلة من الحب لا تنقطع . .

ومن هذه الصلة تنمو في نفس المسلم مشاعر كريمة تسمو به إلى آفاق الكمال ، وتذيقه ألواناً من الراحة والاطمئنان ، والثقة واليقين ، وتدفعه إلى دوام الطاعة وإحسان العبادة . . فيذوق حلاوة الإيمان التي يشير إليها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أَحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحب المرءَ لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذفَ في النار (١) » .

وحب المسلم لربه يملك عليه قلبه ويسيطر على فؤاده فلا يترك في قلبه فراغاً لسواه ولا يحب شيئاً قدر حبه لله ، وذلك دليل إيمانه وبرهان يقينه ، كما قال الله سبحانه: « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلهِ (٢) » .

ولهذا الحب آثاره العملية ودلائله الواضحة في عمل المسلم وجهاده .

---

(١) رواه البخاري .
(٢) سورة البقرة ١٦٥

فهو ينشط للبذل ويخف للتضحية حينما يكون ذلك في سبيل الله وابتغاء رضاه . . فلا يبخل ولا يجبن إيثاراً لمال ، أو إشفاقاً على ولد ، أو رغبة في الحياة . .

بل يقدِّم نفسه وما يملك ، ويبذل جهده وما يستطيع ، في سبيل نصرة العقيدة وحماية الحق والدفاع عن الحرمات . .

وذلك دليل صادق على حبه لله وإيثاره لرضاه . .

فإن أخلد إلى نوازع الجبن والبخل ، واستجاب لمشاعر الضعف والتردد ، وآثر روابط الدنيا على رابطة الله ، فقد خمدت فيه حماسة الإيمان ، وهمدت شعلة اليقين ، وهو حينئذ منحرف عن سبيل ربه متعرض لسخطه وعقابه . .

كما يقول سبحانه : « قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سِبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الفَاسِقِينَ (١) » .

(١) سورة التوبة ٢٤

وكما يحب المسلم ربه لإحسانه وكرمه ، ورعايته وهداه . فإن ربه يحبه لإيمانه وإخلاصه ، واستقامته وتقواه . . « فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ »(١)

فما أَجلَّ ذلك وأَقدسه ، وما أعظمه في النفس التي تسعى إلى الكمال .

ولقد بين الله لعباده أنه يحب المتقين الصالحين . . ذوي الإيمان الراسخ والفضائل العالية و الخلق الكريم .

فهو يحب أهلَ العدل .. « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٢)

وأَهلَ الوفاءِ والتقوى . . « بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ الله يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٣) » . .

كما يحب أَهل العفو والإحسان . « وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِين (٤) » .

ويحب المجاهدين الصامدين الصابرين . . « فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ » (٥) .

---

(١) سورة المائدة ٥٤
(٢) سورة المائدة ٤٢
(٣) سورة آل عمران ٧٦
(٤) سورة آل عمران ١٣٤
(٥) سورة آل عمران ١٤٦

ويحب المتطهرين المترفعين عن الدنايا : « فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللّٰهُ يُحِبُّ المطَّهِرِينَ » (١) .

ومن هنا فإن المسلم الصادق يتابع سيره إلى الكمال . ليحظى بحب الله ويفوز برضاه . .

وعلى أساس هذا الحب يقوم توكل المسلم على ربه .

فالله سبحانه صاحب القدرة القاهرة والعلم الواسع والغنى المطلق . . وهو القادر على النفع والضرر والإعطاء والمنع . .

فكيف لا يتوكل المسلم عليه ، وهو مولاه الذي يهديه ويرعاه . .

« وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوكَّلَ عَلَىٰ اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا » (٢) .

إن التوكل على الله نتيجة طبيعية للإيمان والحب . .

فهو صفة من صفات المؤمنين . . « اللّٰهُ لَا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ وَعَلَىَ اللّٰهُ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ » (٣) .

وحين يتوكل المؤمن على ربه فإنه يستند إلى السبب

---

(١) سورة التوبة ١٠٨ (٢) سورة إبراهيم ١٢
(٣) سورة التغابن ١٣

الأقوي والركن المتين . . يستند إلى ذي الحكمة والرحمة والقوة والتدبير . . وهو سبحانه لن يضيع من استند إليه . . ولن يخذل من توكل عليه . . « وَمَنْ يَتوَكَّلْ عَلىٰ اللهِ فهُوَ حَسْبُهُ » (١) .

والتوكل على الله هو الذي يمنح القلب الطمأنينة والثبات في مواجهة الأحداث ، كما ينمي العزيمة ويقوي الإرادة ، ويفتح منافذ الأمل وأبواب الرجاء ، وهو قوة إيجابية تدفع إلى الكفاح ، وتسد أبواب القلق ، وتعصم من الجزع ، وتقضي على الحيرة والتردد . . فهو خلق من أخلاق البطولة يحتاج إليه المسلم وهو يخوض معارك الحياة . .

وحين جبن بنو إسرائيل عن دخول الأرض المقدسة مع نبيهم ناداهم رجلان مؤمنان من أهل اليقين والتوكل أن امضوا إلى الجهاد واثقين متوكلين فذلك سر النصر وباب الفتح . .

« قَالَ رَجُلَانِ مِن الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا

(١) سورة الطلاق ٣

ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ البَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤمِنِينَ » (١) .

ولهذا فإن المسلم حين يتوكل على ربه ، لا يهمل الأخذ بالأسباب بل يؤدي واجبه ويحتاط لأمره . .

وقد وفَد أَحدُ الأَعراب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك ناقته خارج المسجد وسأل الرسول : أعقلها وأتوكل ، أو أطلقها وأتوكل ؟ فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : « اعقلها وتوكل » (٢) . فلا تنافي بين العمل والحرص على ما ينفع وبين سكون القلب إلى الحق ورجائه ما عند الله . . .

* * *

ومع الحب والتوكل ، فإن المسلم يخشى ربه ويخاف عقابه . . كما يرجو رحمته وثوابه . .

وخشية المسلم لربه هي خوفه من الوقوع فيما يسخطه وعزمه الصادق أن لايجاوز حدوده ولا ينتهك حرماته ، فهي شعور وعمل ونية وسلوك . .

---

(١) سورة المائدة ٢٣ (٢) رواه الترمذي .

وهي بهذا أصل من أصول التربية الإسلامية التي تنشيء الوازع الخلقي في نفس المسلم وتعصمه من من الانحراف والطغيان ، فالمسلم يخشى ربه في كل مكان وفي كل وقت حال . . كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « اتق الله حيثما كنت . . »(١) .

وقد وعد الله من يخشاه بعظيم الأجر وكريم المنزلة ، لأن الخشية دليل صدق الإيمان وثبات اليقين واستحضار القلب لعظمة الرب سبحانه . .

« إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ » (٢) .

والله سبحانه هو المستحق للخشية ، وإذا كان الناس يخافون القوى المسيطرة في الأرض ، ويرهبون ذوي البأس والسلطان ، فإن المسلم لا يخشى إلا الله . . لأن قوته فوق كل قوة وإرادته فوق كل إرادة . . وكل ما في الأرض فهو تحت قدرته وفي قبضته . .

« فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وِلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٣) » .

---

(١) رواه الترمذي . (٢) سورة الملك ١٢ (٣) سورة البقرة ١٥٠

ومن هنا يعيش المسلم عزيزاً لا يذل ، قويًّا لايضعف يهاب ربه ويخشاه ، ولا يذل لأحد سواه . فيصبح قوة في الوجود لها دورها بين نواميس الكون وسنن الحياة .

بهذه العاطفة الصادقة النابعة من الفطرة القريبة من الوجدان يمتلىء قلب المسلم . . بالحب والخشية والرجاء .

وهي تحدد صلة المسلم بربه وتوجه زمامها .

فلا يبقي في القلب شيء غيره . .

ولا يتجه المسلم إلا إلى طريقه . .

ولا ينحرف إلى غاية سواه . .

ذاكر لربه واقف بأبواب رحمته

« يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا الله ذِكْراً كثِيراً وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِن الْظُّلماتِ إلى النُّورِ وَكَانَ بِالمؤْمِنِينَ رَحِيماً » (١) .

* * *

إن إيمان المسلم وصدق يقينه يجعله يذكر ربه في كل وقت ويراه في كل شيء . . في مشاهد الطبيعة وفي أحداث الحياة . . فيأْنس به ويثق في قدرته ويأْوي إلى ظلال فضله ورحمته .

ومثله الأَعلى في ذلك النبي الكريم الذي « كان يذكر الله على كل أَحيانه » (٢) .

وليست حقيقة الذكر باللسان ، بل لا بد أَن ينشأُ أَولاً في الشعور والوجدان ثم يفيض على اللسان ، مناجاة وحمداً ، وتسبيحاً وتنزيهاً . . فحينئذ يكون المسلم

(١) سورة الأحزاب ٤١ ـ ٤٣ (٢) رواه مسلم .

من الذاكرين حقاً ، الذين أعدَّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيما .

والمسلم الذي يذكر ربَّه . . يذكرُه ربُه . .

كما يقول الله عز وجل في حديث قدسي : « أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منه » (١) .

فما أعظم هذا الذي يذكره ربه ويرعاه .

والمسلم الذي يذكر ربه ، يناجيه بقلبه ، ويملأ فؤاده بحبه ، ويستضيء بنوره ، ولهذا فإن الذكر حياة للقلب ونور ، والغفلة عنه موت وظلام . . لأن الذي يغفل عن ربه ينسى حقيقة الوجود ، ويجهل سر الحياة .

وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره مثل الحي والميت » (٢)

وهو تصوير صادق لما ينشئه ذكر الله سبحانه

---

(١) رواه الشيخان .

(٢) رواه البخاري .

في نفس المسلم من قوة وحياة ، وما يمده به من زاد وما يفتحه أمامه من آفاق الإيمان والعمل .

* * *

ولهذا فلا ينبغي للمسلم أن ينسى ربه أو يغفل عنه.

وإلا فماذا يذكر إن نسي ربه ، وبماذا يشتغل إن غفل عنه ؟

إنه يعلم أن لا شيء يشغل الإنسان عن ربه إلا الباطل واللهو والضلال والانحراف .

« وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (١) » .

وَذِكْرُ الله سبحانه سمة المسلم فرداً أو في جماعة .

فإذا اجتمع قوم فغفلوا عن ذِكْر ربهم وشغلوا بالباطل واللغو ، فإنهم يكتسبون إثماً ويستوجبون عقاباً ، كما يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلُّوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة – أي ذنب – فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم (٢) ».

---

(١) سورة الكهف ٢٨

(٢) رواه الترمذي .

وهذا دليل على تأكد الذِّكر وضرورته لصدق الإيمان وتهذيب السلوك .

* * *

والدعاء ذِكْر . .

بل إن الدعاء هو العبادة ، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « الدعاء هو العبادة (١) » . ثم قرأ قوله تعالى (وَقَالَ رَبُّكُمْ أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٢) » .

فما أعظم أن يقف العبد يسأل ربه ويلجأ إليه ويتطلع إلى خزائن نعمته . .

إنه يعرف أن الله وحده هو الذي يملك الاستجابة ، ويملك العطاء .

« وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دعانِ فَلْيَسْتَجِيبوا لِي وَلِيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (٣) » .

(١) رواه الترمذي وأبو داود . (٢) سورة غافر ٦٠

(٣) سورة البقرة ١٨٦

إن الدعاءَ أَن يقف الإنسان أَمام ربه ، ويشعره بصلته به وإحاطته بشأْنه ، ولهذا فهو أَفضل العبادة والذكر .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ليس شيء أَكرمَ على الله تعالى من الدعاء (١) » .

إن مقاليد الأُمور بيد الله وحده ، فلماذا لا يهرع إليه العباد طالبين راغبين ، وهو سبحانه لا يرد أحداً ولا يخيب سائلاً . .

يقول رسول الله صلوات الله عليه : « سلوا الله من فضله ، فإن الله عز وجل يحب أَن يُسأَل ، وأَفضل العبادة انتظار الفرج (٢) » .

* * *

والاستغفار في حقيقته ذِكْر . .

فالمستغفر قد عرف أَن له ربًّا يقبل التوبة ويعفو عن السيئات ، فجاءَ يطلب الصفح ويقدم الإنابة ويعاهده على أن لا يعود .

---

(١) رواه الترمذي وأحمد الحاكم .
(٢) رواه الترمذي .

ولهذا فإن ربه يتوب عليه ويغفر له ويتجاوز عن أخطائه ، كما يقول سبحانه : « وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ومن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ . أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ » (١)

وقد كان رسول الله صلوات الله عليه يعلم المسلمين كيف يستغفرون ربهم ، وكيف يقفون ببابه خاشعين « فكان يستغفر الله ويتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » (٢) . وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وماتأخر !

إن الله سبحانه يدعو عباده أن يسألوه العفو ويطلبوا منه المغفرة .

وتلك غاية الرحمة والفضل والإحسان .

يقول عز وجل في حديث قدسي : « . . يا عبادي

---

(١) سورة آل عمران ١٣٥ ، ١٣٦

(٢) رواه البخاري .

إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفروني أغفر لكم . . (١) » .

* * *

على هذه الثلاثة تقوم صلة المسلم بربه الكريم .

يذكره بالقول والعمل ، وبالشعور والوجدان ، ويدعوه في كل وقت ، ويفزع إليه إن أحاطت به المكاره وأحدقت به المشكلات .

ويستغفره إن زل أو أخطأ ، فيحظى بالمغفرة وينال الرضوان . . فما أقدسها من صلة ، وما أكرمها من علاقة بين عبد ومولاه . .

(١) رواه مسلم .

صاحب للقرآن

. . « إِنَّ الَّذِينَ يَتْلونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ . لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غفُورٌ شَكُورٌ » (١) .

* * *

إن المسلم يعلم أن كتاب الله عز وجل هو روح الهداية في هذا العالم ، وهو نقطة التحول في تاريخ البشرية ، فلا بد أن يكون وثيق الصلة به ، يعيش معه ولا يسأم من ترديد النظر فيه ، فهو حبل الله المتين وصراطه المستقيم .

والقرآن كتاب الله الكريم ، الذي أنزله على محمد صلوات الله وسلامه عليه رحمة للعالمين ، وهداية للناس أجمعين . .

« كِتَابٌ أَنْزلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِن الظُلُمَاتِ إِلىٰ النُّورِ بإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلىٰ صِرَاطِ العزيز الحَميدِ » (٢) .

(١) سورة فاطر ٢٩ ، ٣٠ (٢) سورة إبراهيم ٢

وقد جمع الله فيه من أُصول الخير ومناهج الهدى ما يصلح الحياة ويرسي في الأَرض دعائم الطمأْنينة والسلام : « إِنّ هَذَا القُرْآنَ يَهْدِي لِلتَّي هِيَ أَقْوَمُ » (١) .

* * *

والمسلم يعلم أَنّ للقرآن مهمة يؤديها للفرد والمجتمع ، فهو يرشد إلى نظام كامل ومنهج للحياة فريد .

وهو علاج حقيقي لأَمراض الفرد ومشكلاته ، واستجابة صادقة لنوازعه وحاجاته الأَصيلة ، فلا يعلم حقيقة الإنسان ولا يرسم طريقه المستقيم إلا من خلقه وهداه . .

« وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ مَاهُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إلاَّ خَسَاراً » (٢) ..

وهو دستور الإسلام وأَساسه الأَول ، الذي يجمع أَحكامه ويبين عقائده ويحدد شريعته ، ويوجه إلى آدابه وفضائله . .

فما أَعظمه من كتاب . .

---

(١) سورة الإسراء ٩

(٢) سورة الإسراء ٨٢

ولهذا كانت تلاوة القرآن وتدبر معانيه ، عبادة مفروضة على كل مسلم بقدر محدود كل صلاة . . حتى لا ينقطع المسلم عن مورد الهداية ولا يعزب عن مصدر الإيمان . .

وباب التطوع بعد ذلك مفتوح بلا حد لمن شاء أن يستزيد . .

وقد رغبت آيات القرآن وأحاديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه في تلاوة القرآن والاهتداء بهداه . .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ القرآن واستظهره ، فأحلَّ حلاله وحرَّم حرامه ، أدخله الله به الجنةَ وشفعه في عشرة من أهلِ بيته كلهم وجبت له النار » (٢) . .

* * *

وهو يعلم أن إيمانه لا ينضج ونفسه لا تزهر وروحه لا تضيءَ إلا إذا صاحب القرآن يتلوه ويتفهمه . .

فحينئذ تفوح منه رائحة الإيمان ، وتتضح آداب

---

(٣) رواه الترمذي .

القرآن في قوله وفعله ، وتبدو ثمرات القرآن في نهجه وسلوكه . .

إنه حينئذ طيب الظاهر والباطن كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «

« مثل المؤمن الذي يقرأُ القرآن مثل الأُتْرُجْة (١) ريحها طيبٌ وطعمها طيب ، ومثل المؤمنِ الذي لا يقرأُ القرآن مثل التمرةِ ، لا ريحَ لها وطعمها حلو » (٢).

وليست تلاوة القرآن مجرد عبادة لا ثمرة لها في الحياة . .

بل إن توجيه القرآن للمسلم في شئون الحياة ، وتصويره لحقائق الوجود وبيانه لحقيقة الصلة بين العباد . . كل ذلك يعود على المسلم بالقوة في دنياه ، والرسوخ في علمه والتوفيق في سعيه . . فلا يعيش على هامش الدنيا ، ولا يسير معصوب العينين ضالا عن الهدى . . بل يحيا مؤثرا في بيئته مصلحاً في مجتمعه ، لا يعرف الذلة ولا يألف الهوان . . !

---

(١) ثمر من جنس الليمون . (٢) رواه الخمسة .

ومن هنا كان تعلم القرآن في ذاته ربحاً يفضل كل ربح ، وكسباً لا يعادله كسب . . فهو علم يهدي إلى العمل وتوجيه إلى أقوم طريق .

وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم أن تعلم القرآن يعود على المسلم بثمرات تفضل كلَّ عرض من أعراض الدنيا . . فقال لأصحابه : « . . فلأن يغدو أحدكم كل يوم إلى المسجد فيتعلم آيتين من كتاب الله عز وجل خير له من ناقتين ، وثلاث خير له من ثلاث وأربع ومن أعدادهن من الإبل (١) » .

ومن هنا فلا ينبغي للمسلم أن يتهاون في صلته بالقرآن فينساه أو يهجره ، فالقرآن هو الدستور الذي يجمع حقائق الإسلام ، فإذا انقطعت صلة المسلم به فإن نبْع الإيمان يجف في نفسه فتذوي نضارته ويذهب بهاؤه . .

ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن الذي ليس في جوفه شيءٌ من القرآن كالبيت الخرب » (٢) .

---

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه الترمذي .

ونسيان القرآن إثم عظيم ، لا ينبغي أن يقع فيه المسلم ، وفي ذلك يقول الرسول صلوات الله عليه : « عُرِضت عليَّ ذنوب أُمّتي فلم أَرَ ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أُوتيها رجل ثم نَسِيها » (١) . .

فما أعظم شأن القرآن وما أجدره بعناية المسلمين . !

* * *

فكيف يتلو المسلم كتاب ربه حقّ تلاوته ؟

إنه يعلمُ أن غاية التلاوة هي اتصال القلب بنور القرآن ، ووقوف العقل أمام ما تحويه آياته من حقائق فهي عبادة تحتاج إلى قلب سليم وعقل مستقيم . .

وليست العبرة بكثرة التلاوة ، بل إن العبرة بالتأمل والتَدّبر ، واستجْلاء منابع الهداية من آيات الكتاب الكريم .

ومن هنا فإن المسلم يتلو القرآن خاشعَ القلبِ حاضرَ اللُّبِّ ، عارفاً بقدره مستحضراً لجلاله : « لَوْ أَنْزَلْنَا هذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » (٢) .

---

(١) رواه الترمذي وأبو داود . (٢) سورة الحشر ٢١

وهو لا يجعل القرآن ألحاناً ونغمات لا معنى لها ولا حقيقة من ورائها ، بل ينزهه عن اللغو واللهو . .

فإن ذلك اللهو إثم عظيم ، ينافي جلالَ القرآن ، ويحجب نوره . . فإذا لم يكن القلب مصغياً إلى هداية القرآن فلا جدوى من تلاوته ، كما يقول رسول الله « اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ، فإذا اختلفتم فقوموا عنه » (١) .

* * *

إنه كتاب الله ودستور الحياة ، لا يتخذه المسلم مهجوراً ولا يلهو به ولا يعبث بحقائقه ، فقد كانت تحنو له القلوب وتعنو له الجباه ، إلى حد أن كان يبكي عند سماعه رسول الله . . !

عن عبد الله رضي الله عنه قال : : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقرأْ عَلَيَّ » قلت : أَقرأُ عليك وعليك أُنزل يا رسولَ الله ؟ قال : « إني أشتهي أَن أسمعه

---

(١) رواه الشيخان .

مِن غيري » قال فقرأْت سورة النساء حتى إذا بلغت « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً » قال : كُفَّ أو أَمسك . فرأيت عينيه تذرفان (١) .

---

(١) رراه الشيخان .

صائم عن الدنايا

يرتقي المسلم بإنسانيته إلى ذروة الكمال ، ويعلم أن الله عز وجل قد ميزه عن الحيوان ، وجعل فيه استعداداً للسمو بروحه والتحرر من أسر الشهوات وعبودية الغرائز .

وهو حين يمتنع بمحض إرادته عن تناول الطعام والشراب وإجابة الشهوات يثبت أن الإيمان صانع العجائب ، وأن الإرادة هي الخاصة التي ميز بها الله سبحانه الإنسان عن غيره وفضّله بها على كثير ممن خلق.

والمسلم يعلم أن الصوم عبادة قديمة ، فرضها الله على أهل الأديان جميعاً ، وإن اختلفت طرائقها ، لكن كمال هذه الفريضة وحقيقتها كان في الإسلام .

.. « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . أَيّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ (١) » .

* * *

(١) سورة البقرة ١٨٣ ، ١٨٤

وما كان الله ليشرع لعباده ولا أن يفرض عليهم تلك الفريضة إلا لحكمة بالغة وغاية كريمة ، وليس لمجرد المشقة والحرمان ، وإنما شرع الله الصيام ليصل بالنفس إلى حقيقة التقوى فتسمو عن الدنايا وترتفع عن ضرورات البشرية ، وتتعلم كيف تسيطر على النوازع والرغبات ، وكيف تستعصم عن نداء الفتنة وداعية الشهوة . .

فليس الغرض من الصيام هو إذلال النفس ، أو القسوة عليها . .

ولكن الغاية منه علاج النفس وقوتها ، فتكتسب إرادة حازمة وعزيمة صادقة ، لاتتهافت على الشهوات ، ولا تتهالك على الرغبات واللذائذ ، بل تملك الصبر على الحرمان والقوة في مواجهة الغريزة ، وتصل من ذلك إلى الابتعاد عن الرذائل واجتناب الدنايا . .

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « .. لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ».

فالمسلم حين يمتنع طائعاً عن الضرورات التي يحتاج إليها بحكم الغريزة فإنه لاريب يمسك عن المحرمات ويجتنب المنكرات ، وينشأ في نفسه الضمير الحي

والوازع الخلقي ، الذي يوجهه إلى الخير ويعصمه عن نزعات الشيطان . .

والمسلم حين يصوم يثبت عظمة نفسه وعلوّ قدرها واستعدادها للقيام بالواجبات ، والاضطلاع بعظائم الأُمور ، كما يثبت قدرته على التغلب على الحاجات والأَهواء ، واستعصامه عن الدنايا والسيئات . .

فحين ينجح المسلم في تجربة الصيام فهو على الكفاح أَقدر . .

وحين يقصر عنه ويضعف عن تكاليفه فهو في ميدان الجهاد أَجبن وأَضعف . .

وليس على الصائم رقيب إلا الله . .

ومن هنا تنمو لديه ملكة مراقبة الله ، والشعور باطلاعه عليه ، فتختفي من نفسه مظاهر الرياء ، والتطلع إلى إعجاب الناس ، والرغب في حب الثناء . .

وذلك بعض ما يتعلمه المسلم من عظات الصيام ومعانيه . .

* * *

وقد بين الإسلام حدود الصيام التي يجب على المسلم أَن يلتزمها . .

فإن للصيام جانباً ظاهراً وهو الامتناع عن المفطرات في ساعات النهار .. وذلك أَمر ميسور يقدر عليه الحيوان ، ولكن المهم في الصوم جانبه الروحي الذي جعله الإسلام الهدفَ الحقيقي لهذه الفريضة .

ومن هنا فإن المسلم الحق يتخذ من الصيام وسيلة لتطهير نفسه وتزكيتها . .

فإنَّ من يغفل عن حقيقة الصيام ، ولا يفطن إلى حكمته ، لا يعود صيامه عليه بثمرة ولا ينال منه إلا التعب . .

وإلى هذا يشير رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله :

« من لم يدعْ قولَ الزور والعملَ به فليس لله حاجة في أَن يدعَ طعامه وشرابه (١) » . .

ومن هنا فلابد للصائم أَن يتميز في قوله وفعله ، ويتخذ سلوكاً يتناسب مع جلال العبادة وقدسية الإيمان .

---

(١) رواه البخاري .

وإلى هذا يوجه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله :

« إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يَصْخب ، فإن سابّه أَحدٌ أَو قاتله فليقل إني صائم (١) » . .

وبذلك يرتقي المسلم إلى ذروة الإنسانية التي جعلها الله في أحسن تقويم ويقي نفسه شر غرائزه ، ويفتح طاقات الخير في نفسه .

فما أَجلَّ معنى الصيام وما أَقدس حقيقته ، وماأكرمه من سرّ بين العبد ومولاه . .

يقول الله تعالى في حديث قدسي :

« كل عمل ابن آدم له ، إلا الصوم ، فإنه لي وأنا أَجزِي به ، يدع شهوته وطعامه من أَجلي (٢) » . ! فهو تجربة حية تدل على صدق الإيمان وتحوله إلى قوة قادرة على التوجيه والعمل . .

* * *

ولهذا فإن المسلم الذي يرعى حقيقة الصوم ويحسن القيام بواجباته فيه ينال الأَجر العظيم وتشمله الرحمة الواسعة . .

---

(١) (٢) رواه مسلم .

فقد جعل الله سبحانه الصيام باباً من أبواب الطهر وسبيلا من سبل المغفرة التي تعفي آثار الخطايا . .

وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ماتقدم من ذنبه(١)».

والأمر كله يعود إلى النية الصادقة والعزم القوي ، ومتى خلصت نية المسلم فإن الله يعينه على سلوك سبيل الخير ، وييسر له مجانبة السيئات ومحاربة الأهواء ويقيه نزعات الشيطان . .

كما يقول الرسول صلوات الله عليه : « إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صُفدت الشياطين ومرَدة الجن ، وغلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب ، وفتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب ، وينادي مناد : ياباغي الخير أقبل ، وياباغي الشر أقصر ، ولله عتقاءُ من النار وذلك كل ليلة (٢) » .

* * *

والصوم في حقيقته رياضة للنفس وارتفاع بالإنسانية

---

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه الترمذي .

إلى أُفق كريم وهو جهاد كبير يطبع المسلم بطابع القوة ويزيد من طاقته في ميدان الجهاد .

ومن عجب أَن يحاول بعض المفتونين في عصرنا الغض من شأن الصوم وإغراءَ المسلمين بالتفلت من قيوده بحجة الإنتاج والعمل !

إن النفوس التافهة المشغوفة بالشهوات هي التي تحاول الإفلات من الصيام ولاتَصبر على مشقاته .

وقد كان المسلمون في عصورهم الزاهرة يدركون حقيقة الصيام ، لا الفريضة فحسب ، بل وصوم التطوع الذي يحرصون عليه مختارين . . فلا عجب أن ظهرت فيهم البطولات وحدثت منهم العجائب ، فإن للصيام تربية تقوي الإرادة ، وتصهر العزيمة وتدفع إلى التضحية والفداء .

أَما اليوم . . فإن جماهير من المسلمين تستفظع تلك الفريضة وتفزع منها . . وفيهم الشاب القوي والصحيح القادر . . ويجدون من يُعذرهم ويسوّل لهم .

وهذا أَمر يبعث الأَسى في النفس ، ويكشف عما أَصاب المسلمين في عصرنا من وهَن واختلال .

فكيف يرجى من هؤلاء خير في دينهم أو دنياهم . . !

بل إن هناك طوائف في بعض المجتمعات الإسلامية نحرص على تضييع معاني الصيام وإحاطة شهره بجو من الهزل والفجور حتى تضيع معالمه كعبادة ، وتمحى معانيه في نفوس المسلمين . . وهذا لهو حقير ينبغي أن يتنزه عنه المسلم وأن ينأى عن مواطنه ، وأن يكون مثله الأعلى في رمضان ما كان عليه رسول الله صلى الله من هدي كريم . .

فقد كان من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل من ليالي رمضان وأيامه سوقاً للخير ، يفيض بأنواع الطاعات ويكثر فيه من العبادات ، ويزيد فيه من الإحسان للخلق وإشاعة المعروف .

فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير وكان أجود ما يكون في رمضان .

وكان جبريل عليه السلام يلقاه كل ليلة فيدارسه القرآن فإذا لقيه جبريل عليه السلام كان أجود بالخير من الريح المرسلة » (١) .

(١) رواه الشيخان .

وكان يقوم في رمضان فيصلي ويتعبد . .

وكان يُرَغِّبُ الناسَ في ذلك ويقول :

« من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه (١) » . .

هذا هو الصيام كما يفهم المسلم . . سبيل من سبل التربية وباب من أبواب الجهاد ، ونظام حازم يطبع المسلم بطابع المبادرة والطاعة . . ومهما قيل في بيان معانيه وفهم أسراره فلن ينفد فيه القول ولن يحيط به العلم .

فهو عبادة فذة كما قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :

« عليك بالصيام فإنه لا مثل له (٢) » . .

---

(١) رواه الخمسة . (٢) رواه النسائي والحاكم وصححه .

في بيت الله الحرام

يولى المسلم وجهه شطر المسجدالحرام كل يوم خمس مرات وهو يسجد لربه ، ويعيش طول حياته متعلقاً بهذه القبلة المباركة مشبوب المشاعر نحوها ، فهي رمز العبادة ، وهي موطن النبوة ، وهي أَول مسجد في الأَرض جعله الله لعبادته وتوحيده ، ومن هنا يصبح الحج إلى بيت الله الحرام أَملا لكل مسلم ، لا يمل منه ولا تخمد حماسته نحوه ، لما فيه من تأَكد الالتفاف حول الهدف واليقين بالغاية الواحدة التي تجمع المسلمين

« وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ. وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ . .(١) » . .

* * *

(١) سورة الحج ٢٦ ــ ٢٨

والمسلم يعلم أن المسجد الحرام بمكة هو بيت الله ، الذي أمر إبراهيم ببنائه ليكون مثابة للناس ومقصدا .

وقد صانه الله وحفظه ؛ وطهره وكرمه ، ودفع عنه الطغاة والملحدين وساوى فيه بين الناس العاكفين والبادين ، وأفاض فيه الأمن والطمأنينة على الناس أجمعين .

« إن أول بيتٍ وضِع للناس للذّي ببكةَ مباركاً وهدًى للعالمين فيه آياتٌ بيّناتٌ مقامُ إبراهيم ومن دخله كان آمناً . . » .

* * *

وقد كان العرب في الجاهلية يعظمون البيت عن تقليد للآباء . .

فلما ظهر الإسلام ربط هذا البيت بحقيقته التاريخية وجعله للمسلمين خاصة ، لأنه ميراث أبيهم إبراهيم الذي أمره ربه بإقامته ليكون قبلة ومقصدا للمسلمين .. « قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ

مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » (١) .

* * *

لذلك جعل الله سبحانه من أركان الإسلام الحج إلى بيت الله الحرام ، وجعل ذلك فريضة لازمة في العمر مرة على القادرين .

« وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ، وَمَنْ كَفَرَ فإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ (٢) » .

واستطاعة الحج إنما تكون بالقدرة على مشقات الرحلة وامتلاك النفقة الضرورية في أيام الحج . . ولا يشترط فيه الثراء العريض ولا الصحة الموفورة ، فمن استطاع ذلك فقد وجب عليه الحج إلى بيت الله . .

* * *

فما حقيقة الحج . . وماذا يتعلم المسلم من دروسه ويستفيد من تمارينه . . ؟

إنه رحلة روحية ، وعبادة فريدة تترك أكرم الآثار

---

(١) سورة البقرة ١٤٤ (٢) سورة آل عمران ٩٧

في نفس المسلم ، وتطبعه بطابع التجرد لله والتزام حكمه والخضوع لشرعه . .

ولهذا كان الحج بهذا المعنى طهارة شاملة ، تمسح الخطايا وتكفر الذنوب ، وتبيض ما اسوّد من صحائف الإنسان . .

يقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « من حج لله فلم يرفث ولم يفسق ، رجع كيوم ولدته أُمه (١) » . .

* * *

إن المسلم يتحمل مشقات الحج ومتاعبه راضياً قرير العين فهو بذلك يطيع ربه ويبادر إلى أَمره . .

وفي ذلك تدريب على تحمل الأَعباء ، ومواجهة الشدائد ، ومدافعة الأَخطار . . ولذلك يتعلم المسلم من الحج معنى الجهاد . .

وقد جعل الإسلام الحج جهاداً حقيقياً للنساء والضعاف من الرجال ، يعفيهم من جهاد العدو ، إذ هو غاية وسعهم ومنتهى تحملهم . .

---

(١) رواه الخمسة إلا أبا داود

يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « جهاد الكبير والصغير والضعيف والمرأة : الحج والعمرة(١) » .

كما قيل له : يا رسول الله هل على النساء من جهاد ؟ قال : « نعم ، عليهن جهاد لا قتال فيه : الحج والعمرة (٢)

وقالت له عائشة رضي الله عنها : يارسول الله نرى الجهاد أفضل العمل ، أفلا نجاهد ؟ قال : « لا ، لكن أفضل الجهاد حج مبرور (٣) » . .

فما أحوج المسلم إلى الحج وما فيه من تدريب على الجهاد . .

* * *

ولقد جمع الحج بين نفع الدنيا وثواب الآخرة . .

فكما أنه يطهر المسلم من خطاياه ويمسح عنه أوزاره ، فإنه كذلك يفتح أمامه آفاقاً للكسب ، ويتيح له التعاون والتعارف مع إخوانه المسلمين من شتى أقطار الأرض . .

---

(١) رواه النسائي . (٢) رواه البخاري .
(٣) رواه البخاري .

ومن هنا يستطيع المسلمون أن يبتغوا منافع لهم وأن ينهضوا باقتصادهم واجتماعهم عن طريق الوحدة التي يصنعها لقاؤهم مع إخوانهم في موسم الحج . .

وليت الأُمة الإسلامية في عصرنا تنتفع بتلك النعمة وتكتسب منها وحدة الرأي ووحدة السلوك . .

وقد كان العرب في الجاهلية يتبايعون ويتبادلون موسم الحج ، فلماجاء الإسلام كرهوا الاشتغال بالدنيا أثناء تأدية العبادة . . فرفع الله عنهم الحرج بقوله : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِن رَّبِّكُمْ (١) » .

ومعنى هذا أن الحج عبادة تمحو الذنب وتمحق الفقر !

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبثَ الحديد والذهب والفضة ، وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة (٢) » .

وهو كذلك مؤتمر كبير يجمع ملايين المسلمين من كافة أنحاء الأرض ، فيهيب بهم أن يوحدوا

---

(١) سورة البقرة ١٩٨

(٢) رواه النسائي والترمذي .

آراءهم ويحددوا اتجاهاتهم ، وأن تجتمع كلمتهم على استرداد حقوقهم وحماية حرماتهم ، والتعاون في ميادين الحياة . . وكل هذا مما يشمله قوله تعالى : « لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ . . (٢) » . .

* * *

والمسلم يعلم أن وراءَ أركان الحج جميعاً قصد العبادة ونية ذكر الله . .

ففي الحج يتعلم الناس حقيقة المساواة ، وينزلون جميعاً على حكم الله ، فيتجردون من ثيابهم التي ألفوها ويلبس كل منهم إزاراً ورداءً في خشوع وإخبات . . فلا مكان للمباهاة ، وهم جميعاً في حرم الله ، قد لبوا دعوته وأقبلوا على كعبته ، وأتوه جميعاً خاشعين قائلين كما كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ! إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك (٢) » .

والمسلم في هذه التلبية وهذا النداء الكريم ليس وحده . .

---

(١) سورة الحج ٢٨

(٢) رواه الخمسة .

بل إن كل ما حـوله من خلق الله يتجاوب معـه حتى الجماد والشجر . .

فما أروع هذا الموقف وما أقدسه . .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ما من مسلم يلبي إلا لبى من عن يمينه وعن شماله من حجر أو مدر ، حتى تنقطع الأرض من ها هنا وها هنا » (١) .

وحين يطوفون حول الكعبة فليس طوافهم مجرد دوران حول بناءٍ . . بل هو مناجاة لله وصلاة . . وتطلع وتضرع واستغاثة والتجاءٌ . . لصاحب الفضل وواهب الإحسان . .

ولهذا كان الطواف موضعاً من المواضع التي يستجب فيها الذكر والدعاء ؛ وموطناً من مواطن الرحمة والمغفرة .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الطواف حول البيت مثل الصلاة ، إلا أنكم لا تتكلمون فيه ؛ فمن تكلم فيه فلا يتكلمن إلا بخير » (٢) .

---

(١) رواه الترمذي .
(٢) رواه الترمذي والحاكم .

وكل مشاعر الحج ومناسكه لا يقصد بها إلا ذكر الله والتطلع إلى فضله واللجوء إلى رحابه ، وليست طقوساً لا معنى لها ، أو حركات لا تُثْمر في النفس شيئاً . .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما جُعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ورمي الجمار : لإقامة ذِكر الله تعالى (١) » . كما يقول : « خير الدعاء يوم عرفة »(٢) .

* * *

هذا هو الحج . . كما يفهمه المسلم الحق . باب من أبواب الدنيا وسبيل من سبل الآخرة . .

ورحمة الله مصحوبة برعايته وفضله ، مشمولة بتوفيقه وإحسانه .

فالمعرض عن الحج معرض عن الله ، غير راغب في ذكره ولا مهتد بهداه . .

وهو حينئذ بعيد عن دينه منحرف عن صراطه ،

---

(١) رواه أبو داود وأحمد والترمذي

(٢) رواه الترمذي وأحمد .

وصدق رسول الله : « من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً (١) » .

---

(١) رواه الترمذي وأحمد .

في ماله حق معلوم

لا ينسى المسلم حين يؤدي حق ربه أن الله سبحانه قد أمره بأداءِ حق أخيه الإنسان ، فتلك أيضاً عبادة لله وابتغاءٌ لرضاه . .

فلا بد أن يقوم بناءُ المجتمع على التكافل والتعاون ، حتى لا يكون المال دولة في أيدي الأغنياءِ ، بينما يحرم الفقراءُ من ضروريات الحياة . .

فالمال مال الله ، والناس جميعاً شركاءُ فيه . . إن لم يكن على سواءٍ فعلى الأقل بما يعين الفقير على أعباءِ الحياة ، ويشد أزره في مواجهة دنياه . .

وليست الزكاة إلا مظهراً لما يفيض به قلب المسلم من إحساس بالمسئولية الاجتماعية وشعور قوي بالتضامن والارتباط ، فهي كما قال الرسول صلوات الله عليه : « صدقة تؤخذ من أغنيائهم وتردّ على فقرائهم » . .

والمسلم يفهم لماذا يقرن الإسلام دائماً بين حق الله وحق العباد ، فيجمع بين الصلاة والزكاة . . « وَأَقِيمُوا

ٱلصَّلاَةَ وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ » (١) .

ويجعل الله ذلك من سمات المؤمنين . . . « ٱلَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا ٱلصَّلاَةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَاةَ » (٢) .

ويجعل الإنفاق نتيجة من نتائج الإيمان : « آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجرٌ كَبِيرٌ » (٣) .

ولم يترك أمر الإنفاق موكولا إلى ضمائر الناس ، بل حدده بالشريعة ، فأوجب زكاة المال بنسبة معلومة في كل موارد الكسب من الذهب والفضة ، والتجارة والزروع ، والثمار والسوائم من الإبل ، والبقر ، والغنم ، والكنوز التي توجد في باطن الأرض . وأنصبة (٤) هذه

(١) سورة البقرة ١١٠ (٢) سورة الحج ٤١

(٣) سورة الحديد ٧

(٤) نصاب الذهب عشرون مثقالاً أو عشرون ديناراً .

ونصاب الفضة ٢٠٠ درهم أو ٢٧ ريالاً أو ٥٤٠ قرشاً مصرياً ، ومقدار الزكاة في الذهب والفضة ٢,٥٪ أي ربع العشر .و التجارة يجب الزكاة في قيمتها وزكاة الزروع العشر إذا سقيت بدون آلات ، والخمس إذا سقيت بآلات والإبل والبقر والغنم لا تجب فيها زكاة إلا إذا كانت ترعى غالباً في المراعي العامة . ولا زكاة في أقل من خمس من الإبل أو أربعين من الغنم أو ثلاثين من البقر . ففي الخمس من الإبل شاة وفي الأربعين من الغنم شاة ، وفي الثلاثين =

الزكاة تتسم بالعدالة والوسط ، لا تجحف بالفرد ولا تصادر نشاطه الضروري ولا تستولى على قوته الذي يحتاج إليه ، وفي الوقت نفسه ترعى حق الفقير فلا تشترط قدراً كبيراً من الشراء . . كما فرض زكاة الفطر من صيام رمضان على كل مسلم يجد ما يزيد عن كفايته في يومه وليلته ، فيتعلم المسلم من دينه كيف يكون التضامن وكيف يسع الناس بعضهم بعضاً في مجتمع الإسلام . .

* * *

ومن هنا يدرك المسلم الأساس الذي تقوم عليه فريضة الزكاة ويعرف ثمراتها للفرد والمجتمع . .

فإن الزكاة من جانب المزكي طهرة لماله وسمو بنفسه ، وعلاج له من أدواء الشح والبخل حتى لا يكنز المال ويحبسه عن نفع المجتمع . . كما يقول الله سبحانه : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا(١)».

= من البقر تبيع أي واحد منها أتم سنة ودخل في الثانية .

والكنوز التي توجد في الأرض إذا كانت جاهلية يجب فيها الخمس ، وإن كانت إسلامية فهي حق للدولة . وزكاة الفطر صاع من الطعام أو قيمته .

(١) سورة التوبة ١٠٣

وهي كذلك سد للخُلَة وكفاية للحاجة ، وإقامة للعدالة ، وتقرير للتكافل بين الناس . .

ولهذا يعلم المسلم أن الزكاة حق للفقير ، لا فضل من الغني .

إنها فريضة مادية ومع ذلك يربطها الإسلام بأصل الإيمان ويقرر لها قداسة العبادة وجلال الشعيرة ويجعلها انعكاساً لما يعمر القلب من عقيدة ومبدأ . . فالقرآن الكريم يذكر الزكاة في أُصول الإسلام الأُولى التي لايتخلى عنها ولا يقبل جدلا حولها : « وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ (١) » . كما يجعل الكفر بحق الفقير تكذيباً بالدين وإنكاراً للبعث : « أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ » (٢) . ويجعل الاستهانة بحق الفقير سبباً من أسباب الجحيم :

« مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ » (٣) . .

---

(١) سورة البينة . (٢) سورة الماعون .

(٣) سورة الحاقة .

بل يجعل القرآن جحد الزكاة ومنع حقوق الفقراء وجهاً بارزاً للكفر يكفي للتعريف به وينوب في الدلالة عليه :

« وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ . ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرونَ » (١) .

ولا يذكر القرآن إقامة الصلاة ، وهي حق الله سبحانه ، إلا ويقرنها غالباً بأداءِ الزكاة : « وأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(٢)» « وَالْمُؤمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَولِيـاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهْ (٣) » . .

وهكذا يحل الإسلام فريضة التكافل الاجتماعي محلها بين أركانه ويضمن لها الثبات والرسوخ ، ليعلم المسلم ارتباط تلك الفريضة بحقيقة الإيمان ودلالتها الواضحة على صدق اليقين فيبادر إلى أدائها راضياً .

---

(١) سورة فصلت .
(٢) سورة النور ٥٦
(٣) سورة التوبة ٧١

إنها تجربة صادقة للبذل تؤدي إلى ألوان أخرى من التضامن والتعاون .

ولاينتهي الأمر بالمسلم عند أداء زكاة ماله بحدها المفروض ، فإن أمامه باب التطوع يرغبه في الإسلام ويحضه على المضي في سبيله . . فالزكاة حد أدنى للتكافل الاجتماعي يضعه الإسلام . .

يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « إذا أديتَ زكاة مالك فقد قضيت ما عيلك (١) » . .

ولكن القرآن إلى جانب نصه على الزكاة المفروضة يذكر حق الفقير في مال الغني على الإجمال ، مما يبين أن المهم كفاية الحاجة وسد الخلة : « وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢) » . وهذا الحق غير الزكاة المفروضة وهو حق يعرفه المسلم بحسه المرهف وقلبه النقي وتجاوبه مع الأحداث التي تقع حوله وإحساسه بأنه لبنة في بناءٍ كبير . .

والمسلم يعلم أن الزكاة حل ناجح وكريم لمشكلة

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه (٢) سورة الذاريات ١٩

الحاجة والضعف والتخلف في مواجهة الحياة ، إنها مورد متجدد يشمل كل مصادر العمل والكسب ، يتجه إلى مصب واحد : الفقر والعوز والحاجة ، فلا يزال ذلك عمله فيمسح الآلام ويقرب الفوارق ولا يفسح المجال للثروة الفاحشة أو الاستعلاء على البائسين أو الإزراء بحقوق المساكين . .

وقد شهد بذلك تاريخ المجتمع الإسلامي في كل الأجيال التي أقامت تلك الفريضة إلى عهد قريب . فقد كان المجتمع الإسلامي بمنجى من البؤس والضعة وكانت الحياة فيه كريمة على كل فرد ، لا يحفل بصور الشقاء والحاجة التي تهوي بالإنسان إلى الحضيض وتلبسه ثوب الذلة والهوان .

وكانت الزكاة تعمل عملها في التقريب بين الطبقات وكفاية المحتاجين .

إنها حل طيع ميسور ، يخفف الأحقاد ويلطف من الصراع ويحقق التآزر بين القادرين والعاجزين ، وعن طريقها نجح المجتمع الإسلامي في تحقيق السلام بين الطبقات وربطها برباط التكافل ، مما يحقق التوازن

ويشيع التكافل في المجتمع . . ويعالج كثيراً من المشاكل التي تهدد المجتمع بالاضطراب والاختلال . .

* * *

إن المسلم لا يبخل عن حقوق العباد ، ولا يعرض نفسه للتهلكة فهو يعلم أن البخل لن يعود عليه بالخير في دنيا أو آخرة . .

ففي الدنيا تمحق ثروات الباخلين ويزايلها التوفيق والبركة .

كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً (١) » . .

إن الله يبارك في أموال المنفقين ، ويخلف على المتصدقين .

« وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ (٢) » .

---

(١) رواه الخمسة . (٢) سورة سبأ ٣٩

وفي الآخرة تصبح ثروات الممسكين وسيلة من وسائل العذاب الأليم .

كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « (١) من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته ، مُثِّل له يوم القيامة شجاعاً (ثعباناً) أقرع ، له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، ثم يأْخذ بلهزمتيه (أي شدقيه) ثم يقول : أنا مالك أنا كنزك . ثم تلا :

« وَلاَيَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلوا بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ » (٢) .

فلن يكسب من يجحد الزكاة إلا البوار والخسران .

* * *

أما الإنفاق والتصدق فهو خير محض للمنفقين .

فالمال نعمة من الله أنعم بها عليهم ، ثم يستقرضهم منها بأجر مضاعف وثواب عظيم .

« إن تَقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ

(١) رواه الخمسة إلا أبا داود . (٢) سورة آل عمران ١٨٠

لَكُمْ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ » (١) .

والمنفقون في رحمة الله ورعايته : « وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِين هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنونَ » (٢) .

والذي ينفق في سبيل الله لا يضيع عمله هباء .

فإن الله يدخره له ويجزيه به . . « وماتُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ ، وَمَا تُنْفِقُونَ إلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ الله ، « وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَتُظْلَمُونَ » (٣).

« وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً » (٤) . .

* * *

ولقد فرض الإسلام على كل مسلم أن يُشْرِبَ قلبه حبَّ الخير ونفع الناس بما يستطيع ، من مال وجهد أو نية شعور .

---

(١) سورة التغابن ١٧ (٢) سورة الأعراف ١٥٦

(٣) سورة البقرة ٢٧٢ (٤) سورة المزمل ٢٠

فليس لأحد أن يعيش مع الناس يمنع عنهم خيره ، ويبسط إليهم أذاه .

فإن ذلك ليس من خصال المسلم ، ولا يستقيم مع منهجه في الحياة .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « على كل مسلم صدقة ، فقالوا يا نبي الله فمن لم يجد ؟ قال : يعين ذا الحاجة الملهوف ، قالوا فإن لم يجد ؟ قال : فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر فإنها له صدقة » (١).

وهكذا يصبح المسلم ويمسي وهو يمدُّ الحياة بنفع ويشيع فيها الخير بين الناس ، فهو يعلم أن هذا مقياس الإسلام ودليل اليقين ، فليس الإيمان بالتمني ، بل هو ما وقر في القلب وصدقه العمل .

---

(١) رواه الشيخان والنسائي .

صِلة المسلِم بالناس وَالحيَاة

يهدف الإسلام في حقيقته إلى صنع الفرد المثالي الذي يعرف كيف يعامل الخلْق وكيف يتجه في الحياة ، وفق مبادئه وأصوله .

وهذه الغاية ثمرة لما قبلها ، من الإيمان الصحيح والعبادة الراشدة ، فهما يثمران الخلق الكريم والمعاملة السَّمحة التي تليق بالإنسانية المهذبة . .

والذين يحاولون عزل الإسلام عن الحياة أو يفرقون بين العبادة والمعاملة إنما يجهلون دينهم وينحرفون عن صراطه . .

وليس من شك أن المجتمع الإنساني لم يشهد بشراً أكرم ولا أقوم من هؤلاء الذين صنعهم الإيمان وعمر قلوبهم اليقين . .

وبغير ذلك لا يعدو الإنسان المتحضر أن يكون حيواناً مهذباً لا يلبث أن يعود إلى طبيعته ويحنّ إلى أصله . .

وإذا لم يتعلم المسلم من دينه كيف يرقَى إلى أسمى

الآفاق في المعاملة وأطهر الأخلاق في مخالطة الناس فإن إيمانه لا يصح وإسلامه لا يستقيم . .

ولننظر كيف صور القرآن الكريم توازن شخصية المسلم واكتمال خصائصها في هذه الآية الجامعة التي لا تقتصر على العبادة ولا تقف عند حد الاعتقاد ، بل تضيف إليها مكارم الأخلاق وتضعها في إطار مرموق :

« لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَلكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالمَلائِكَةِ وَالكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إذا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي البَأْسَاءِ والضَّراءِ وَحِينَ البَأْسِ أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هَمُ المُتَّقُونَ » .

ونحن هنا نشير إلى أصول الأخلاق التي تميز المسلم وتحدد نظرته إلى الحياة وموقفه من الناس ، في إيجاز يكتفي بالإشارة ويبتعد عن التفصيل . .

---

(١) سورة البقرة ١٧٧

صادق في قوله وعمله

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ » (١) .

من ملامح المسلم ومعالمه البارزة التزام الصدق في قوله وعمله . .

فهو خلق أصيل من أخلاقه يعبر عن حقيقته ويشير إلى أهدافه . .

والصدق في نظر المسلم ليس إلا الحق الذي هو أساس الإيمان وعماد الوجود ، أما الكذب فهو الباطل الذي لا يقوم له بناء ولا تثبت له قدم .

وما دام المسلم قد اختار طريق الحق ، فآمن بالله وعرف سر الوجود ، فلابد أن يتحرى الصدق في قوله وأن يتخذه منهاجاً في حياته ، لأنه يعلم أن الكذب يناقض الإيمان وأنه خطر يتهدد العقيدة ويفسد العمل ..

ومن هنا فإن المسلم الحق لايتصف بالكذب ولايرضى

(١) سورة التوبة ١١٩

به طريقاً ، كما يقول الرسول صلوات الله عليه : « يُطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب » (١)

كما أن التزام الكذب والميل إلى الباطل يخرج صاحبه من دائرة الإيمان إلى هاوية النفاق ، وفي ذلك يقول الرسول : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كان فيه خصلة منها كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب . . (٢) » . .

ولهـذا فإن المسلم يتخذ من الصدق طريقاً مأموناً ينتهي به إلى رضوان الله سبحانه ويهديه إلى حسن العاقبة في الدنيا والآخرة . . فينمي مواهبَ الخير في نفسه ويطبعه بطابع الحق ، فيألف مسالك الخير والاستقامة وينبت في قلبه بذور اليقين والمعرفة ، ويسمو به إلى أرفع الدرجات . .

ويصور ذلك الطريق ويعبر عن مناهجه قول الرسول صلوات الله عليه : « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر ، والبر يهدي إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صِدِّيقا .

---

(١) رواه أحمد .　　(٢) رواه البخاري .

وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار ، وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » .

وليس الصدق طريقاً إلى رضوان الله سبحانه وعظيم مثوبته فحسب ، بل هو طريق النُّجح في الحياة ، وهو الصراط المستقيم الذي يصل بصاحبه إلى التوفيق في سلوكه والرشاد في سعيه ، وهو بذلك طريق النجاة في الدنيا والآخرة . أما الكذب فليس وراءه إلا ضلال القصد وسوء العاقبة ، مهما بدا للنظر القاصر غير ذلك.

وفي هذا يقول النبي صلوات الله عليه :

« تحرَّوا الصدق وإن رأيتم أن الهلكة فيه . فإن فيه النجاة (١) » .

وبذلك يصبح الصدق في نظر المسلم سُنة من سنن النجاح في الدنيا ، والفلاح يوم القيامة ، وقانوناً من قوانين الإيمان يعكس نظرة المعلم إلى الحياة ويدل على طريقه الذي ارتضاه . .

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا .

ومن هنا فإن المسلم يحرص على أن يعوّد لسانه قول الحق في الصغير والكبير ، وفي الجد واللعب ، حتى يصبح الصدق سمة من سماته وصبغة في خلقه لا تزول ، مهتدياً في ذلك بقول الرسول الكريم :

« لا يؤمن العبد الإيمان كله حتى يترك الكذب في المزاح (١) » .

وبقوله : « من قال لصبي تعال هاك ـ أي لأعطيك ثم لم يعطه فهي كذبة (١) » . وليس وراء ذلك غاية في تزكية النفس وتهذيب الخلق والسمو بالإنسانية إلى أعلى مراتبها من رعاية الحق وإيثار الصدق في كل شأن وعمل . .

* * *

إن الصدق في نظر المسلم وفي مفهوم الإسلام ، ليس وصفاً لالتزام الحقيقة في القول والحرص على الصواب في المنطق فحسب ، ولكنه وصف لاتجاه المسلم في حياته وحقيقة تدل على معدنه وتوضح طريقه . .

فالصدق في العمل يعني إخلاص النية واجتناب

---

(١) رواه أحمد .

الرياء الذي يحبط العمل ويفسد الحياة ويجعلها زوراً لا حقيقة وراءه . .

« وَمَا أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ (١) » .

والمسلم الصادق لا يعمل إلا لله ولا يبغي من سعيه إلا رضاه ، ويعلم أن ما عدا ذلك من الغايات والمقاصد ضلال في القصد وهلكة للنفس وفساد في المجتمع . .

وحين سأل أحد المسلمين رسولَ الله صلى الله عليه وسلم : « إني أحب أن أقاتل في سبيل الله ، وأحب أن يرى الناس مكاني ، نزلت الآية الكريمة : « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (١) » .

وهكذا فإن المسلم يصدق مع ربه ، كما يصدق مع نفسه ومع الناس ، فيصبح ظاهره كباطنه في الصفاء والطهر والاستقامة ، ويجعل وسائله في حياته شريفة كغاياته ، فهو يعلم من كتاب ربه أن الكذب سبيل الضلال بل هو طريق الكفر ، لأنه مذهب لا يختلف

---

(١) سورة البينة .

(٢) سورة الكهف .

وطريق تدل بدايته على نهايته ، فمحال أن يختاره مسلم يبغي لنفسه حسن العاقبة : « إِنما يَفْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُولئك هُمُ الكَاذِبُونَ (٢) » .

وأعظم الكذب وأشده عقاباً ما انتهكت به الحرمات وضاعت به الحقوق ، كشهادة الزور التي تقلب ميزان العدل وتغير وجه الحق ، فتشيع المظالم وتظهرالفساد ، ولذلك نهي الإسلام عنها أشد النهي وشدد النكير على من يشهدونها ، فجعلها من أكبر الكبائر عند الله ، كما يقول الرسول صلوات الله عليه : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ ـ ثلاثاً ـ قلنا بلى يارسول الله . قال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ـ وكان متكئاً فجلس ـ وقال : ألا وقول الزور وشهادة الزور . فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت (٢) » .

ومن هنا فإن التزام المسلم بالحق وحرصه على رعايته مهما كلفه ذلك من عناء يعود على المجتمع كله بالطمأنينة ويسبغ عليه ظل الأمان ، حتى ليصل المسلم إلى درجات من المثالية والتضحية ومجانبة النفع الذاتي في سبيل

---

(١) سورة النحل ١٠٥ (٢) رواه البخاري .

خير المجتمع والحفاظ على حقوق الإنسانية :

« يَاأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ شُهداءَ للهِ وَلَوْ عَلى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الوالدِينِ والأَقربِينَ إنْ يكُنْ غَنِيا أَوْ فَقِيراً فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الهَوَى أَنْ تَعْدِلوُا وَإنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (١)

ومعنى ذلك أن الصدق في ميزان المسلم الحق غاية في ذاته . . دون نظر إلى نفع أو حرص على مصلحة : إنه شهادة لله ، واستقامة مع سنته في الكون والحياة ، وليس وراء ذلك مثالية ولا ارتقاء بالإنسانية . .

(١) سورة النساء ١٣٥

حافظ لأمانته

الأَمانة خلق من أَخلاق المسلم الأَصيلة التي تنبع من عقيدته ، وتدل على صدق اتجاهه وشرف غايته .

ولهذا كانت الأَمانة من لوازم الإيمان ، وكانت الخيانة من علامات الجحود والكفران ، كما يقول الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له » (١) . .

* * *

والأَمانة بمعناها الحقيقي في نظر المسلم صفة نفسية تملي على صاحبها سلوكاً لا يتبدل إزاء كل ما يعهد إليه القيام به ، وكل ما يلتزمه ويتحمل مسؤوليته . .

وهي بهذا تحيط بكل تبعات الحياة الصغيرة والكبيرة ، وتتناول كل الأَعباء التي يحملها الإنسان . .

وفي ذلك يقول الرسول ــ صلى الله عليه وسلم « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام راع ومسئول

(١) رواه أحمد .

عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسئولة عن رعيتها ، والخادم في مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته » (١).

غير أن العبء يعظم والمسئولية تتأكد كلما اتسع النطاق وثقلت الأمانة . .

فالولاية على الناس ورعاية أمورهم أمانة كبرى ، لا يستشرف لها المسلم إلا حين يثق في قدرته على حملها وكفاءته أمام أعبائها ، وصدق نيته في إشاعة الخير بين الناس وكبح نوازع الشر عنهم . . وإلا عرض نفسه للحساب وجلب لها سوء العقاب . .

عن أبي ذر قال : قلت يا رسول الله ألا تستعملني؟ (أي تسند إليّ عملا أقوم به ؟) قال : فضرب بيده منكبي ثم قال :

« يا أبا ذر : إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة ، إلا من أخذها بحقها ، وأدى الذي عليه فيها (٢) » .

---

(١) رواه البخاري . (٢) رواه مسلم .

والحق أن ضياع تلك الأمانة من علامات انتهاء الحياة في الأرض ، وأمارات اقتراب القيامة . . وهو دليل على فساد المجتمع واختلال موازينه .

فقد جاء رجل يسأل رسول الله : متى تقوم الساعة ؟

فقال له : « إذا ضُيّعت الأمانة فانتظر الساعة » . فقال : وكيف إضاعتها ؟ قال : « إذا وُسِّد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة » (١) .

ومن هنا فإن المسلم يحسن القيام بكل ما يُعهد به إليه ، ويعلم أنها أمانة يُسأل عنها ويتوقف مصيره على أدائها . .

* * *

والمسلم الحق يعلم أن النعم والمواهب أمانة ، وعطاء مشروط بأن يتجه به الإنسان إلى سبيله القويم .

ومن العجيب أن كثيراً من الناس يهلكون أنفسهم ، فيجحدون فضل الله ويضعون نعمه في غير مواضع الشكر والطاعة .

---

(١) رواه البخاري .

وتلك خيانة تجلب لصاحبها الشقاء في الدنيا والآخرة . .

والمسلم يعلم أنه مسئول عن النعم التي وهبها الله سبحانه له ، فيحرص على أن يوجهها في سبيل الخير وأن يرعي فيها حدود الله ، فيستديمها بالشكر وينجح فيما يعرض له من ابتلاء .

يقول الرسول صلوات الله عليه : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأَل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه » (١) .

* * *

أما جانب المعاملة فإنه موطن كبير يجب أن تتجلى فيه الأمانة ويتضح فيه يقين المسلم بما للناس من حقوق.

« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا . . (٢)

فما يجوز أن يستبيح المسلم لنفسه من حقوق الناس شيئاً ، وإن هان ، فإن ذلك ليس من أخلاق المؤمنين

---

(١) رواه الترمذي .　　　(٢) سورة النساء ٥٨

الذين يعملون أن كل المسلم على المسلم حرام .. دمه وماله وعرضه .

وقد بين الرسول صلوات الله عليه أن الله سبحانه قد يغفر حقوقه ويصفح عن سيآت عباده، ولكنه لايعفو عن حقوق العباد .

ففي البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إذا خلص المؤمنون من النار ـ أي اجتازوا الصراط ـ حُبسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيتقاضون مظالم كانت بينهم في الدنيا . . » .

ولهذا فإن ضمير المسلم يستيقظ وإحساسه يرق فيؤدي الأمانة للناس أجمعين وصدق رسول الله . . « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » (١) . وذلك هو الإسلام الحق الذي يشيع الأمن بين الناس ويحفظ لكل فرده حقه ويصون حرماته .

* * *

إن المسلم يعلم أن حياة الإنسان في هذه الدنيا مجموعة

---

(١) رواه أحمد .

من الأمانات صغيرة كانت أو كبيرة .

وهو مطالب أن لا يخون فيها ولا يفرط في أدائها . .

« يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَتَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » (١) . .

ولكن العجيب أن سلوك أكثر الناس في هذه الدنيا يتسم بالخيانة والتفريط ... !

« إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَالجِبَال فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً » (٢) .

لقد كانت الحياة منذ قامت مسرحاً للجهالات وميداناً للتظالم ، مما يجعل الخيانة سمة بارزة لكثير من المجتمعات والعصور ، ولا عاصم من ذلك إلا الإيمان الصادق ويقظة الضمير التي تبرىء صاحبها من الظلم والجهل وتشدُّ يده بُعرى الأمانة والإيمان .

---

(١) سو رة الأنفال ٢٧ (٢) سورة الأحزاب ٧٢

متسامح مع الخلق

« وَلاَ تَسْتَوِي الحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ »(١)

* * *

صلة المسلم بالناس تشملها السماحة ويظللها الحلم ؛ ويحيط بها العفو والتجاوز وضبط النفس .

إن ذلك من علائم التقوى ، وأمارات الإيمان ، ودلائل قوة النفس وعظمتها ، واعتدادها بإيمانها ، وارتفاعها عن سوءات الحقد ، ومشاعر السوء .

وقد كان ذلك المعنى مما بَدل الإسلام به أفهامَ العرب عن القوة والبأس ، فقد كانوا من قبل يظنون أن القوة في الانتقام والغلبة .

ولذلك قال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه : ما تعدون الصُّرعة فيكم ؟ [أي القوي الشجاع] قالوا : الذي لا تصرعه الرجال ، قال : « لا ،

(١) سورة فصلت ٤

ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب » (١) .

فذلك هو الذي نضج إيمانه وقهر هواه وسيطر على نوازعه وسلوكه .

* * *

ولئن كانت المشاعر الطبيعية للإنسان تدفعه إلى الانتقام والانتصار ، وتغريه أن يقابل السوء بمثله ، فهذا حق أباحه الإسلام للنفس البشرية مقيداً بعدم التجاوز كما يقول الله تعالى : « فَمَنِ اعتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدىٰ عَلَيْكُمْ »(٢) . وكما يقول في أوصاف المؤمنين : « وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ البَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ » (٣) . .

لكن الإسلام بعد تقرير هذا الحق ، أهاب بالإنسان أن يسمو إلى منزلة أعظم من ذلك وأكرم ، منزلة ينالها المسلم بإيمانه وتقواه ، وله بذلك أعظم الأجر من الله .

وفي ذلك يقول تعالى : « وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَىٰ اللهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ » (٤)

(١) رواه مسلم .

(٢) سورة البقرة ١٩٤

(٣) سورة الشورى ٣٩

(٤) سورة الشورى .

وذلك يجعل المسلم يؤثر ثَواب الله على شفاء الغيظ وإجابة نداء الشر ويصفح عن أَخيه ، رجاءَ لما عند الله من عظيم الأَجر فقد تكفل بإرضائه وإثابته ، جزاءَ تجاوزه عن الإساءة وترفّعه عن الانتقام ، كما أَشار إلى ذلك قوله تعالى : « فأَجره على الله » . . وكما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « إذا كان يوم القيامة ينادي مناد : ليقم من أَجره على الله فليدخل الجنة ، وهم العافون عن الناس » (٤) . .

* * *

إن المسلم يعلم أَن الحلم والعفو منزلة من منازل الإيمان .

وليس علامة ضعف ولا أَمارة جبن .

ولكنه أَمارة اليقين بأَن الله صاحب الحساب والجزاء ، وبأَن ثوابه الذي أَعده للعافين عن الناس ، خير من لذة الانتصار والانتقام .

ولهذا كانت له تلك الدرجة العليا وذلك الثواب العظيم .

---

(٤) رواه الطبراني بإسناد حسن . وهو من حديث طويل بمعناه .

يقول رسول الله : « من كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، حتى يخيره في أي الحور شاء » (١) .

وهذا دلالة على استحقاقه الجنة ، وفوزه برضوان الله

* * *

إن الإسلام يجعل العفو والصفح سبيلاً من سبل التربية ، التي تنظف القلب من مشاهد الحقد ، وتطهره من نزعات السوء ، وبذلك يرتفع يقين المسلم ، ويزيد إيمانه وكماله ، فتعلو منزلته عند الله ويعظم ثوابه . .

يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « ألا أنبئكم بما يشرّف الله به البنيان ويرفع الدرجات » ؟ قالوا : نعم يا رسول الله .

قال : « تحلم على من جهل عليك ، وتعفو عمن ظلمك ؛ وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك » (٢) .

وذلك سمو بالإنسانية إلى أعظم درجة يطيقها

---

(١) رواه أبو داود ، والحور : نساء الجنة .
(٢) رواه الطبراني .

الإنسان ، فيهذب نفسه ويطهرها من نوازع الشر وبواعث الانتقام .

* * *

والمسلم في ذلك العفو والتسامح يصدر عن وعي بأمن المجتمع وسلامه فهو يعلم أن صغار الشرور تَهيج كبارها وأن التنازع يودي بقوة الجماعة ..

فالخصومات ، والمنازعات بين الأفراد والجمعات ، تهدم أمن المجتمع وتزلزل أركانه ، وتجعله مسرحاً للفتن والأحقاد .

« وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ » (١) .

وهو يعلم أن رباط الأُخوة من القوة والأَصالة بحيث لا تفصمه الضغائن أو أزمات الحياة وصعاب المعاملة . .

فالأُخوة بين المسلمين يجب أن تكون أقوى من المنازعات والأَحقاد .

فإن الصلة بينهم من صنع الله ، يقويها اجتماعهم على دينه ، ونصرتهم لشريعته . .

---

(١) سورة الأنفال .

ومن هنا يصبح العفو ضرورة يحتمها حفظ الكيان الاجتماعي ويدعو إليها ما يجب أن يشيع بين المسلمين من حب ورحمة حتى تنمو الصلات وتقوي الروابط .

« وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) » .

* * *

وإذا كان هذا شأن المسلم في الصفح والغفران عن زلات أخيه ، فإنه بالأحرى لايعتدي على أخيه ولاينتهك حرمته . .

فالعدوان جريمة ينبغي ألا يفكر فيها مسلم ، وأمامه قول الرسول الكريم : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » (٢) .

فأيًّا ما نظر المسلم إلى أخيه فلن يجد منفذاً للشر ينفذ منه إليه ، ما دامت الأُخوة بينهما قائمة ، ومادام الحق والعدل يظل المجتمع كله .

فلا سباب ولا نزاع ولا قتال من المسلمين ، وإلا فهو

---

(١) سورة النور ٢٢

(٢) أخرجه الستة إلا النسائي وهذا لفظ مسلم .

الفسق والكفر ، كما يقول النبي صلوات الله عليه : « سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر » (١) . . وكما يقول : « ما من مسلمين إلا وبينهما ستر من الله عز وجل ، فإذا قال أحدهما لصاحبه كلمة هجر ، خرق ستر الله » (٢) . .

تلك هي الصلة التي تنبغي بين المسلمين . .

* * *

لقد جعلهم الله إخوة ، وحذرهم رسولهم من الفتنة والفساد ، وبصرهم بعواقب التنازع حين قال : « فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقابَ بعض » وذكرهم بنعمته التي تستوجب الشكر وتستأهل العرفان : « وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا (٣) » . فلا بد للمسلم من أن يقي الناس شره ، فيسلمون من لسانه ويده ، وأن يشمل إخوانه صفحه وتسامحه ، فذلك أجدى عليه وعلى الإنسانية جميعاً . .

---

(١) رواه البخاري . (٢) رواه البيهقي (٣) سورة آل عمران ١٠٣

صبور على الشدائد

« والصَّابرينَ في البَأْساءِ والضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ ، أُولٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وأُولٰئِكَ هُمُ المتَّقُونَ » (١) . .

* * *

الصبر من أخلاق المسلم ووسائله في الحياة . .

« واسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ » (٢) . .

وهو من دلائل صدق الإيمان ، فإنه لايصبر لحكم الله إلا مؤمن به ، مقدر لحكمته ، مبتغ لثوابه في الدنيا والآخرة . .

« وَلِمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ » (٣).

* * *

والمسلم يعلم أن الصبر ضرورة في هذه الدنيا . .

فالدينا ميدان فسيح تعاقبت عليه الأجيال ، واختلفت عليه الأمم ، فواجهتهم طبيعة الحياة ،

---

(١) سورة البقرة ١٧٧ (٢) سورة البقرة ٤٥
(٣) سورة الشورى ٤٣

ولا زال هذا الميدان يستقبل أجيال الناس بطبيعة لا تتغير وحقيقة لا تختلف ، يشير إليها قول الله سبحانه « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ » (١) .

فالصبر يجعل المسلم يحسن التصرف في كل موقف ويواجه الحياة بمشاعر ثابتة وقلب مطمئن . .

فإن ذلك هو ما يقتضيه الإيمان ومايثمره اليقين . « لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » (٢) .

* * *

ولئن كان كل إنسان يحب أن تسير الأمور على هواه . .

فإن القدر له خطة محكمة ونهج مرسوم . .

وليس أمام الإنسان إلا أن يتقبل الأحداث ويواجه الواقع ، بتسليم ورضا ، فإن ذلك خير له في الدنيا

(١) سورة البقرة ١٥٥ (٢) سورة آل عمران ١٨٦

والآخرة ، أما الجزع والسخط فإنه يضيع عليه راحة الدنيا وثواب الآخرة . .

والمسلم يعلم أن قوة الله لا تُقهر ، وإرادته لا تُغلب ومشيئته لا تُردّ ، ورحمته من وراء ذلك للصابرين ، وهدايته للموقنين :

« وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إذا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ » (١) . .

فالرضا والاحتمال نعمة كبرى يهبها الله للصابرين الذين يرضون بحكمه ، ويستسلمون لإرادته ، فيكتسبون طمأنينة القلب وثقة النفس وصلاح البال ، وهذا خير عطاء وأفضل نعمة ، كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « . . ومن يتصبر يصبره الله ، وما أُعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر » (٢) .

والمسلم يعلم أن الابتلاء مهما اشتد فهو خير له في الدنيا والآخرة ، بل هو دليل على أن الإيمان يعمر

(١) سورة البقرة ١٥٥ ــ ١٥٧ (٢) رواه البخاري .

قلبه وأن القدر يرشحه بذلك للدرجات العلى . . ولهذا كان الابتلاء سنة لا تتبدل في حياة المصطفين الأخيار .

فإن قلوبهم عامرة باليقين ، مزودة بطاقة من التحمل والثبات . . فقد سئل رسول الله صلوات الله عليه : أي الناس أشد بلاء ؟ قال : « الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الناس على قدر دينهم ، فمن ثخن دينه اشتد بلاؤه ، ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه ، وإن الرجل ليصيبه البلاء حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»(١)

ولذلك فإن المسلم لا يهن أمام البلاء ، ولا ينكص على عقبيه إن مسته الضراء ، لأنه يعلم أن للإيمان تبعات ، وأن المكاره طبيعة الحياة التي يميز الله بها الخبيث من الطيب ويمحص بها الصدق من الادعاء : «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ والَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ » (٢) . .

فإذا انتهت هذه الدنيا وانطوت صفحتها ، فإن

(١) رواه ابن حيان .

(٢) سورة آل عمران ١٤٢

للصابرين من عظيم الأجر وكريم الجزاء ، ما ينسيهم ما لقوا في الحياة من جهد وعناء :

« إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١) » .

وهذا الأجر الجزيل في دار الخلود لا تقاس به نعمة أو سلامة في الدنيا الفانية مهما طالت ، التي يزول نعيمها وتنسى لذتها . .

ولذلك « يودُّ أهلُ العافية يومَ القيامة حين يُعطَى أهلُ البلاء الثوابَ لو أن جلودهم كانت قُرضت بالمقاريض (٢) » . .

إن المسلم يتخذ من الصبر سلاحاً ماضياً في جهاده وكفاحه في سبيل الحق فهو لا يصبر على الذل ولا يرضى بالضيم ولا يستسلم للطغيان : « إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا : كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ . قَالُوا : أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ واسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولئِكَ مأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً (٣) » . .

---

(١) سورة الزمر ١٠ (٢) رواه الترمذي .
(٣) سورة النساء ٩٧

أما صبر المسلم فإنه قوة دافعة تجعله أصلب عوداً وأشد بأساً فلا يجزع ولا يفزع :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١) » . .

(١) سورة آل عمران ٢٠٠

عفيف قنوع

.. « إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ (١) » .

* * *

إن المسلم ينظر إلى الدنيا فيراها على حقيقتها ولا يلهيه العاجل عن الآجل ولا تخدعه زخارف الحياة وأباطيلها .

فهو لا يعيش في دنياه حيواناً ، يبحث على اللذائذ ويغرق في الشهوات .

بل إن له من أهدافه العليا ما يحجبه عن العبث ويعصمه من النزق والفجور . .

فهو يعلم أن متاع الدنيا ونعيمها ليس غاية من غايات الوجود ، فلا ينبغي أن يشتغل به الإنسان ويُغرق فيه ، فيتعب نفسه بلا طائل ، ثم يتبين سوء العاقبة

---

(١) سورة محمد ١٢

في الدنيا والآخرة ، كما يقول الله تعالى :

« أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَاكَانُوا يُوعَدُونَ مَاأَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَاكَانُوا يُمَتَّعُونَ (١) » . .

والمسلم لا يحرم على نفسه طيبات الحياة ولا يمنعها حقوقها المشروعة . .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاتُحَرِّمُوا طَيِّباتِ مَا أَحَلَّ اللَّهَ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » (٢) .

ولكنه يقيد نفسه في استمتاعه بالحياة بقيدين : الحلال والاعتدال .

فلا يظلم نفسه بانتهاك حرمات الله ، ولا يعتدي بالخروج إلى حد الإسراف الذي يمقته الإسلام . بل يلتزم بما رسمه الإسلام له من الطريق الوسط في سلوكه في دنياه وتمتعه بها . .

كما يشير إليه قوله سبحانه : « وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولةً إلىٰ عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ

---

(١) سورة الشعراء ٢٠٥ ــ ٢٠٧ (٢) سورة المائدة ٨٧

كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (١) » . .

* * *

ومما يعين المسلم على الزهد في شهوات الغيّ والقناعة بالطيب من الرزق أنه ينظر إلى دنياه وأخراه معاً .

فبينما هو يعمل للدنيا لا ينسى واجب الآخرة .

فلا يجعل متاع الدنيا همه ، ولا يتهالك على شهواتها ، بل يأخذ من دنياه ما يعينه على نَيْل ثواب ربه في الآخرة .

كما قال الله عز وجل : « فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَمِنْهُم مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّار أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا » (٢) .

والنظر البصير إلى الحياة يجعل الإنسان لا يبتغي من دنياه إلا ما به قوام العيش وأمن الحياة ، دون تهالك على المناعم أو ولوع بالذات . .

« من أصبح منكم آمناً في سر به ، معافى في جسده ،

---

(١) سورة الإسراء ٢٩ ، ٣٠ (٢) سورة البقرة ٢٠٠ ــ ٢٠٣

عنده قوتُ يومه ، فكأنما حِيزت له الدنيا بحذافيرها»(١)

فحسب الإنسان في دنياه : الأمن والعافية وقوت اليوم . .

أما الإغراق في المتاع ، فإنه فضول ليس من مطالب الحياة وليس من أهدافها ، بل هو كما يقول النبي : « إياك والتنعيم ، فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين (٢) » .

* * *

والمسلم يدرك أنه لا علاقة بين حظوظ الناس من المال وإحرازهم للثروة ، وبين حظهم في الآخرة ونيلهم لرضوان الله .

فقد ينال الإنسان المال الوفير ولكنه لايكون في حساب الحق شيئاً ذا قيمة ولايقع من رضوان الله بمكان .

« أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الخَيْرَاتِ بَلْ لاَ يَشْعُرُونَ (٣) » .

ولا تقف الآيات عند هذا الحد ، بل تعقب ذلك برسم صورة مثالية للذين يسارعون في الخيرات ،

---

(١) رواه الترمذي . (٢) رواه أحمد .
(٣) سورة المؤمنون ٥٦

وينالون أرفع الدرجات حتى تتحطم المثل الزائفة التي كانت تغشى الأبصار في الجاهلية العربية . . وكل جاهلية . . « إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ » . (١)

إن هؤلاء الذين يبتغون من حياتهم تحقيق مثل أعلى يؤمنون به ويعملون له ، والذين تسقط لديهم كل قيمة زائفة وكل نظرة إلى الحياة مختلة ، فلا يرون في الثروة غاية تُبتغى ولا هدفا يُذهل الإنسان عما وراءه . . هؤلاء ينفقون ويؤتون في سبيل الخير « ما آتوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ » تخشى سوء الحساب وتقدر عظيم التبعة وتحس بخطر التكليف وثقل الأمانة التي حملها الإنسان . .

وأولئك ينظرون إلى المال على حقيقته ، وسيلة يشارك بها الإنسان في الخيرات ، وابتلاء ينجح الإنسان فيه على قدر إحسانه التصرف فيما وهب له ، فلا

---

(١) سورة المؤمنون ٥٧ ـ ٦١

يستذلهم المال ولا يخفض هاماتهم حب المتاع ، ولايتخلون عن الحق ولا يُغْضون عن الفساد .

ولذا فإن المسلم لا يغتر بمظاهر الثروة ما دامت في أيد مفسدة لا تحيا لمبدأ ولا تؤمن بحق . .

فما دامت بعيدة عن طاعة الله لا تتجه إلى الخير والإحسان ، فهي استدراج يُفْضي بصاحبه إلى الشقاء والبوار . .

« فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (١) » .

وعجيب في المنطق المادي أن تصبح النعمة أداة عذاب لصاحبها ولكنها الحقيقة التي يؤيدها التاريخ أن الطمع والشراهة والشح ، على صاحبها وعلى المجتمع البشري ، فيصبح المال في أيدي المفسدين وبالاً وفتنة .

وفي مقابل هذا ربما كان بين المقلين الزاهدين في متاع الحياة من يرفعه الحق إلى أسمى الدرجات بيقينه وتقواه . . « رُبَّ أشعث أغبر ذي طِمْرين (٢)

(١) سورة التوبة ٥٥ (٢) الطمر : الثوب البالي

لو أقسم على الله لأبرّه (١) » .

وهذا خليق أن يُعلّق نظر المسلم بالحقائق ، وأن يزهده في المظاهر والأشكال فيضع الناس حيث وضعهم الله ويقدر الأمور بميزانها المستقيم . .

فإذا طمح الناس إلى المتاع وتكالبوا على اللذائذ ، فإن المسلم يملك نفسه ويحزم أمره ويؤثر ما يبقى على ما يفنى ، ويصبر على تكاليف الحق ويزهد في عرض يحول وظل يزول : « زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِسَاءِ وَالبَنِينَ والقَنَاطِيرِ المُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالْخَيْلِ المُسَوَّمَةِ والأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ المَآبْ «(٢) » .

---

(١) أخرجه الترمذي .
(٢) سورة آل عمران ١٤

مستزيد من المعرفة

إن العلم في نظر المسلم هو قمة الهدى التي يبلغها الإنسان ، وهل الإيمان إلا نوع من العلم بالله وتصحيح النظرة إلى الكون والحياة ، محوطاً بالحقائق والدلائل ؟

ولهذا يجعله القرآن مقابلا للكفر الذي هو جهل وضلال : « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ »(١).

إن المعركة مع الكفر هي معركة مع الجهل والخرافة ، إذ يقوم الكفر على أوهام وأكاذيب لا سند لها ولا برهان « قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْم إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » (٢) .

ومن هنا كان شقاء الجاحدين حين اتبعوا أهواءهم وقدّسوا أوهامهم ولم يبحثوا عن الحق ولم يتحروا الصواب : « بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْم

(١) سورة الزمر ٩ (٢) سورة الأحقاف ٤

فَمَنْ يَهْدي مَنْ أَضَلَّ اللهُ » (١) .

وذلك ما يجعل المسلم حريصاً على العلم معّولا عليه في بلوغ الحقيقة واستقامة الطريق . .

والمسلم يرى في آيات الكتاب أنها إنما أُنزلت للعالمين ، الذين يخرجون من أَسوار الجهالة ويفتحون عقولهم لضياء المعرفة : « وَمَا يَعْقِلُهَا إلاَ العَالِمُونَ » (٢) . فأُولئك الذين يَسْتجْلون آيات الله ويفهمون دلائل وجوده وقدرته ، ولهذا كان الإيمان الصحيح بحاجة إلى قاعدة من العلم وهداية من العقل تساند الشعور وتوجه العاطفة ، وتمد القلب بألوان من الطمأنينة واليقين . .

« وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ البِّرِ وَالبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٣) » .

إن ذلك يلفت الأَنظار إلى مشاهد الكون ويجعلها سبيلاً إلى معرفة الخالق وفهم أَسرار الحياة . .

---

(١) سورة الروم ٢٩ (٢) سورة العنكبوت ٤٣
(٣) سورة الأنعام ٩٧ ، ٩٨

فما كان الشرك بالله إلا عن جهالة بقدره وذهول عن عظمته المتفردة ومشيئته المطلقة : « أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ » (١) .

« وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ » (٢) . .

وما يكون التوحيد والإيمان الصادق إلا عن وقوف على حقائق الكون وإدراك للقدرة التي تفردت بذلك الإبداع . .

وإلى هذا يشير القرآن الكريم بقوله :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » (٣).

ومن هنا فإن المسلم لا بد أن يبرأ من الجهالة التي كانت ومازال علة التكذيب والجحود . .

---

(١) سورة الزمر ٦٤

(٢) سورة الزمر ٦٧

(٣) سورة فاطر ٢٧ ، ٢٨

« بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ (١) » .

إن إيمانه يرتقي به إلى آفاق سامية من المعرفة والهداية . .

وهو يبدأ في العلم بأُولى المعارف وبديهيات الحقائق ، من الإيمان بالله ولقائه وماينبغي له . . ثم يطلق بصره في الآفاق يتعلم كل شيء ويتبصَّر في كل ما يحيط به ويدرك من الحقائق والقضايا ما يشاء . .

وهو يعلم أن دائرة العلم في الإسلام أوسع من أن تُحد وأشمل من أن تحصر بنوع أو اتجاه . . فالمسلم يتعلم كل ما ينفعه وكل ما يطمح له ويستعد ، ويعلم من كتاب ربه أن العلم كان خاصة آدم الأُولى التي تميز بها على الملائكة « وعلَّم آدمَ الأسماءَ كلَّها » وليس الأمر إدراك أسماء ، بل هو خبرة بالمسميات ومعرفة بطبائعها وأحوالها ، وفي هذا ما يشير إلى دور العلم في حياة الإنسان وأثره في تذليل الحياة له . .

لكن المسلم يعلم أن العلم لاخير فيه ولا أثر له إن لم يهدِ إلى الحقيقة الأُولى ، وهي معرفة الله سبحانه ..

---

(١) سورة يونس ٩٣

وإلا فما فائدة أن يعلم الإنسان من خصائص الكون وطبائع الأشياء ما يعلم ، ثم يغفل عن الخالق الذي أعطَى كل شيءٍ خلقه ثم هدَى . . ! ؟

إن العلم هنا لم يقمْ بدوره ولم يهد الإنسان إلى حقيقة وجوده ومهمته في حياته . .

ولهذا ينعى القرآن على حضارات البشر الجاحدة التي تركتهم قطيعاً هملاً لا تتعدى معارفهم المادة وظواهرها دون أن ينفذوا إلى الحقائق أو يعقلوا المعاني..

« أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالحَقّ وأَجَلٍ مُسَمّىً وإِنَ كَثِيراً مِنَ النَّاس بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ » (١) .

وإنا لنرى الحضارات المادية في عصرنا تنفذ إلى كثير من حقائق العلم المادي وتصل إلى آفاق عليا في شتى ميادينه . . ولكن تصورها للحياة ومعرفتها بحقيقة الكون وغايته لا تعدو أن تكون معرفة أُمية تشوبها الخرافات والأوهام أو الجحود والنكران ،

---

(١) سورة الروم ٧ ، ٨

فما يتناسب تفوقها العلمي مع حظها من إدراك الحق وصلتها بالله خالق الكون والإنسان . .

أما الإسلام فإنه يرتب كل الحقائق ويبني صروح العلم على أساس اليقين بوجود الله وتوجيه الحياة إلى طاعته ، فالعلم في نظر المسلم وحدة متكاملة لايناقض بعضها البعض ، ولا تنقسم إلى شطر نظري وآخر عملي ، بل تقوم على مبدأ واحد وإدراك واحد لا تعدد فيه ولا انفصام . .

* * *

إن الإسلام يجعل العلم بمعناه الواسع فريضة على كل مسلم . .

وفي سبيل ذلك نوه القرآن بأداة العلم ووسيلته ، وهي الكتابة : «اقْرَأْ بِاسِمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

ومن هنا يدفع القرآن الإنسان إلى أفسح آفاق العلم والمعرفة . .

وقدوة المسلم في ذلك رسوله الكريم صلوات الله عليه

الذي وجهه القرآن أن يطلب المزيد من العلم وأن لايقف عند حد منه ما دام يجد إليه سبيلاً :

« وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمَاً (١) » .

وموسى الكليم الذي لم يستنكف أن يبتغي المزيد ن العلم وتعرف الحقائق ، بعد أن أُوتي الرسالة ، فقطع المسافات في البحر يطلب المعرفة ويبحث عن الحق.

« فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمَا . قَالَ لَهُ مُوسىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدَا (٢) » .

وهو توجيه راشد ، بابتغاء العلم من أي سبيل والجهد في سبيله ، فإن « الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها (٣) » .

ويكفي أن يكون طلب العلم طريقاً إلى الجنة ، ليعلم المسلم أن العلم النافع باب الإيمان : « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له طريقاً إلى الجنة»(٤).

---

(١) سورة طه ١١٤

(٢) سورة الكهف ٦٥ ، ٦٦

(٣) رواه الترمذي .

(٤) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي

« إن الملائكة لتضع أجنحتها على طالب العلم رضاً بما يصنع (١) ».

ولا ينتهي دور المسلم عند تطلب المعرفة والاستزادة من العلم ، بل إن ذلك يصنع على كاهله عبئاً هو أن يعلم الجاهل ويرشد الضال وينشر ضياء المعرفة في كل مجال . .

فذلك أفضل المراتب التي يبلغها المسلم ، كما يقول الرسول صلوات الله عليه : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » (٢) .

وقد أمر الرسول أصحابه أن يشيعوا العلم ويبلغوه : « ليبلغ الشاهد الغائب » ويقول : « بلغوا عني ولو آية »(٣)

بل إن كتمان العلم جرم كبير يؤذي صاحبه ويشقيه : « من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة (٣) » .

وذلك يجعل من المسلم الحق ضياءً لمجتمعه وأداة نافعة لدينه ودنياه .

---

(١) أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي .
(٢) أخرجه البخاري . (٣) أبو داود والترمذي .

قوي صحيح

« يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ (١) » . .

* * *

هكذا يكون المسلم . . مثلاً للإنسان الصحيح في فطرته وتكوينه ، وفي قوته واكتماله ، فهو الصورة الصادقة للطاقة البشرية التي تنهض بالعبء وتعمر الأَرض وتحمل أَمانة الحياة .

والمسلم يفهم القوة بمعناها الصحيح ، إنها ليست الجبروت والقهر والتطاول بل هي كمال البشرية الذي يتجه بجهد الإنسان إلى الخير ، وبقوته إلى الرحمة والعدل ، ويجعل منه أَداة يحق الله بها الحق ويبطل الباطل . .

وهي ليست قوة الجسم وحده ، ولكنها قوة الكيان الإنساني كله ، الجسم والنفس والطاقة والخلق ، ولو كانت قوة المادة وحدها لأَضحت شراً على صاحبها وعلى الناس ، وليس ذلك ما يرجوه الإسلام .

---

(١) سورة القصص ٢٦

وعلى ضوء هذا يفهم المسلم توجيه الإسلام إلى القوة وحرصه على أن تكون طابع أتباعه :

« المؤمن القوي خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز (١) » .

إنها القوة المتكاملة التي ترتبط بالحق والعدل ، والتي لا تترك جانباً من جوانب الإنسان يدبّ إليه الوهن والحزن .

والتي تجعل من المسلم سُنة من سنن الوجود ، يأتي بالخير أينما اتجه ، ويمكّن للحق والعدل في كل مجال ..

* * *

والمسلم يقدر عناية دينه بصحة الأبدان ، إذ هي سبيل الجهاد ووسيلة العمل فيهتم بالوقاية التي هي أول خطوة في طريق العافية ، والتي تقيه مشقة العلاج وآلامه ، ومن أجلها كانت النظافة فريضة مشروطة للعبادة في الإسلام ، كالوضوء ، والغسل ، وطهارة الثوب والمكان ، وفي كل ذلك وقاية للصحة وتدريب

---

(١) رواه مسلم .

على الطهر والنقاء . .

وفي سبيلها أيضاً كان تحريم الخبائث من الطعام والشراب ، كالخمر والميتة والدم ولحم الخنزير : « وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ » (١) .

وفي سبيل القوة كانت عناية الإسلام بالرياضة وإقراره لما كان معروفاً منها بين العرب ، كالسباحة والرماية والفروسية ، « فقد مر الرسول صلوات الله عليه على قوم ينتضلون ـ أي يرمون السهام يصيبون بها الأغراض ـ فقال : « ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً (٢) » .

ومما ينسب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « علموا أولادكم السباحة والرماية ومروهم فليثِبوا على الخيل وثباً » .

فلئن كان العرب في الجاهلية يهتمون بتنشئة شبابهم على صفات البطولة والشجاعة ، فإن حاجتهم إليها بعد الإسلام أولى وأشد . .

---

(١) سورة الأعراف ١٥٧ (٢) البخاري .

ومن أَجل العافية كان حث الإِسلام على التداوي وأَمره بابتغاءِ العلاج . .

« تداووا فإِن الله لم يضع داءً إلا وضع له دواءً ، غير داءٍ واحد : الهرم (١) » .

« لكل داءٍ دواءٌ ، فإِذا أَصيب دواءُ الداءِ برىءَ بإِذن الله عز وجل (٢) » .

وفي كل ذلك ما يقنع المسلم بالحرص على العافية والنفور من الضعف والوهن في أَي مظهر كان . .

ومع قوة البدن واكتمال العافية يحرص المسلم على قوة الإِرادة وثقة النفس في خطوها في الحياة . .

فليس المسلم أَسيراً لهواه ولا عبداً لشهواته ، وإِلا ضل سواءَ السبيل . .

«وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ (٣) » .

وليس جباناً عن الجهر بالحق وإعلان الرأْي ، مهما

(١) أصحاب السنن. (٢) البخاري ومسلم .
(٣) سورة ص ٢٦

جلب له ذلك من فزع ، فلا يهاب أحداً ولا يخشى في الحق لومة لائم : « لا يمنعن أحدكم هيبةُ الناس من التكلم بحق إذا علمه (١) » .

وهو قوي حين يجعل نفسه شهيداً لله بالحق ، لا يؤثر منفعته ولايحابي قرابته ، فولاؤه لله قبل كل ولاءٍ . .

. . « يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَىَ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللهُ أَولىٰ بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الهَوى أَنْ تَعْدِلُوا وإنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً »(٢)

وبذلك نفسر ما كان يشيع بين المسلمين في الصدر الأول من قوة في الحق ومن صدق مع النفس ، حتى ليقر الرجل على نفسه وينصف منها الناس ، وليس عليه من شهيد من البشر .

وبهذه القوة نفسر ما كان مفروضاً على المسلمين من صمود أمام المشركين ، رغم تفاوت العدد والعدة . . « إنْ يَكُن مِّنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُـوا مِائَتَينِ

(١) الترمذي .

(٢) سورة النساء ١٣٥

وإنْ يَكُن مِّنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَومٌ لاَ يَفْقَهُونَ (١) » .

إن المفاضلة هنا بين نفسين ، نفس مؤمنة قوية بالحق واثقة بنصر الله ، وبين نفس كافرة خاوية من العقيدة جاهلة بحقيقة الحياة .

وهذه القوة عنصر أساسي في تكوين شخصية المسلم ، وبدونها يصبح المسلمون عدداً لا قيمة له ولا طابع يميزه بين الناس ، وهم حينئذ أهون على أنفسهم وعلى الحياة من كل هوان ، كما هو طابع الكثرة في هذا الزمان ، وإلى ذلك يشير قول الرسول صلوات الله عليه :

« يوشك أن تتداعى عليكم الأُمَمُ ، كما تتداعى الأَكَلَةُ إلى قصعتها قالوا : أوَ مِنْ قِلَّةٍ نحن يا رسول الله ؟ قال : لا والذي نفسي بيده إنكم يومئذ لكثير ولكنكم غثاءٌ كغثاءِ السيل ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم وليجعلن في قلوبكم الوهن . قالوا : وما الوهن يارسول الله : قال : حب الدنيا وكراهية الموت (٢) » .

فالمسلم حين يضعف إيمانه ويتهالك على المتاع

---

(١) سورة الأنفال ٦٥ (٢) أخرجه أبو داود .

ويخون أمانته ويفلت من رباط دينه ، يفقد خاصته التي ميزه الله بها ، وتبرد في قلبه حماسة الإيمان ويخفت نداءُ العقيدة ، وهو حينئذ مريض القلب واهن القوة. ولن يبرئه من ذلك إلا حين يعود إلى الفطرة التي ارتضاها له دينه والصبغة التي ميزه بها الله بين العالمين : « فِطْرَتَ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (١) » .

(١) سورة الروم ٣٠

أبيٌّ كريم

« . . مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعاً . .(١) » .

* * *

العزة خلق من أخلاق المسلم يحدد اتجاهه ويميز سلوكه بين الناس فليس المسلم ذليلاً ولا مستضعفاً ، لأن دينه يأبى له الذلة ، ولا يرضى له الهوان ، بل يجعل العزة حقاً من حقوق المؤمنين وسمة من سماتهم :

« وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ المَنَافِقِينَ لا يعْلَمُون (٢) » .

وعلى المسلم أن يحتفظ دائماً بعزة نفسه ، وألا يفرط في كرامته ، ولا يرضى بالدنية والاستكانة .

فإن رضي بالهوان فقد انحرف عن طريق الإيمان ، كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من أعطى الذلة من نفسه طائعاً غير مكره فليس منا (٣) » .

* * *

(١) سورة فاطر ١٠ (٢) سورة المنافقون ٨
(٣) أخرجه الطبراني .

ولا ينبغي للمسلم أن يلصق بالأرض ويقبل الضيم ويسام الخسف فلا يتحرك ولا يأبى .

فإن ذلك دليل على هبوط النفس وخمود شعلة الإيمان ، فإن طبيعة الإيمان تقتضي الثورة على الذلة ، والإباء على الهوان ، والقوة في مواجهة الظلم ومكافحة الطغيان أينما كان .

وقد عاب القرآن على الذين استكانوا لقوى الكفر ، ورزحوا تحت سيطرة الطغيان فظلموا أنفسهم وأضاعوا إيمانهم .

« إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الملائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً » (١) .

والإباءُ هو النتيجة الطبيعية لعقيدة المسلم التي تجعله يوقن أن الكون كله في قبضة الله ، وأن العباد أخوة ، يتفاضلون بالإخلاص والتقوى ، ويتمايزون بالجهاد والتضحية ، فليس فيهم من يستحق أن يحني له المسلم

(١) سورة النساء ٩٧

هامته ويُطأطئ له رأسه ، ويشعر نحوه بالرهبة والخشوع .

« فَلاَ تَخَافُوهُمْ ، وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » (١) .

ومن هنا يحرر الإسلام الناس من عبادة بعضهم بعضاً ، ويجعلهم جميعاً عبيداً للواحد القهار .

* * *

والمسلم يعلم أن كل ما يحرص عليه الإنسان بعيد عن أيدي الناس . . لا يتصرف فيه إلا الله .

فالرزق والأجل ، والنفع والضرر ، بيد الله وحده .

« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ في الأَرْضِ إلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُها » (٢) .

« وفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ » (٣) .

بل « إن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله (٤) » ، فالمسلم الحق لا يذل نفسه ولا يبذل كرامته ، في سبيل التكالب على ما سيأتيه بقدر محدد ، وأجَل عند الله معلوم .

---

(١) سورة آل عمران ١٧٥
(٢) سورة هود ٦
(٣) سورة الذاريات ٢٢
(٤) رواه الطبراني .

ولهذا حث الرسول صلى الله عليه وسلم على طلب الرزق بثقة ويقين ، وفي مهل ، وتؤده حتى يتحفظ الإنسان بكرامته ويصون ماء وجهه ، فقال :

« . . فإن جبريل ألقى في روعي أن أحداً منكم لن يخرج من الدنيا حتى يستكمل رزقه ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، فإن استبطأ أحد منكم رزقه فلا يطلبه بمعصية الله ، فإن الله لا يُنَالُ فضلُه بمعصيته(١) » .

ذلك عن الرزق . .

والأجل كذلك مرهون عند الله بساعة وميقات .

« فَإِذا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعةً ولاَ يَسْتَقْدِمُون (٢) » .

فلا يقصر العمر قولُ الحق والشجاعة في مواجهة الباطل ، كما لا يطيله الجبن والاستكانة والخضوع .

* * *

والنفع والضرر كذلك بيد الله وحده . .

فهو القادر على الإسعاد والإشقاء ، وليس في أيدي العباد من ذلك شيءٌ .

---

(١) رواه الحاكم . (٢) سورة النحل ٦١

وحين تستقر هذه الحقيقة في قلب المسلم لا ترهبه قوة ولا يؤثر فيه إغراءٌ ، بل يتبع الحق أينما كان ، ويقاوم الباطل مهما أُحيط بالقوة والسلطان .

فلن يستطيع البشر إذلال من أعز الله ، أو إعزاز من أذل الله .

« مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ » (١) .

وقد أجمل هذا كله رسول الله صلوات الله عليه حين يقول :

« واعلم أن الأُمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفّت الصحف (٢) » .

إن هذه المعاني تزرع الإباء وتنبت القوة وتؤسس العزة في نفوس أبناء الإسلام .

* * *

---

(١) سورة فاطر ٢

(٢) رواه الترمذي .

ولقد كان الاستعمار الذي بليت به بلاد المسلمين في هذا العصر أعظم ذلة حاقت بهم ، وأكبر ظعنة وجهت إلى كيانهم . .

فليس هناك أفظع من أن يعيش المسلمون أذلة في ديارهم ، وقد تحكم فيهم أعداؤهم وسيطروا عليهم .

وهو كذلك لم يتم إلا بعد أن ذابت في بلاد المسلمين عناصر القوة وماتت نوازع الكفاح .

وهو كذلك لم يتم إلا بعد أن أهمل المسلمون اتخاذ العدة ، والتزود بالقوة ، التي تمنع حرماتهم وتذود عن كرامتهم .

ولئن كانت معظم بلاد المسلمين قد تحررت الآن من عبودية الاستعمار ـ ولله الحمد ـ فقد بقيت بعض بلادهم تحت سيطرة الغاصب الأثيم . .

ولن تتم للمسلمين عزتهم ولن يصح إسلامهم إلا إذا طهروا كلَّ ديارهم من ذل الاستعمار ورجسه . .

فإن ذلك مقتضى الإيمان ، وثمرة العزة التي يهبها للمؤمنين .

« وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلكافِرينَ عَلَى المُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (١) » .

إن المؤمن لا يخضع لسيطرة عدو دينه وعقيدته ، ومفسد وطنه وبلاده ، بل لا بد أن تكون إرادته هي العليا وكلمته النافذة . .

وفي سبيل ذلك يجاهد ويكافح حتى ينتصر ، لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، وليعش حرًّا ، آمنا في دياره ، عزيزاً في دنياه .. كما وصفه الله . :

« .. أَعِزَّةٍ عَلَى الكافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » (٢) .

ولهذا كان الجهاد عنصراً أساسيًّا في شخصية المسلم يؤدِّي به واجبه نحو عقيدته ومجتمعه ، فيعبىءُ نفسه ليكون مستعداً في كل حين لحماية الحرية والدفاع عن الحقيقة ، وإلا فلا يسلم إيمانه ولا يكمل . .

يقول الرسول صلوات الله عليه : « من مات ولم

---

(١) سورة النساء ١٤١ (٢) سورة المائدة ٥٤

يغْزُ ولم يحدِّث نفسه بغزوٍ مات على شعبة من النفاق(١)»

وفي رواية لأبي داود : « من لم يغزُ ولم يجهز غازيا ولم يخلف غازيا في أهله بخير أصابه الله تعالى بقارعة قبلَ يوم القيامة » .

وبذلك يعيش المسلم مشدوداً إلى رباط الجهاد مستعداً للبذل والفداء في كل آن . .

يقول الرسول : « الجهاد واجب عليكم مع كل أمير براً كان أو فاجراً (٢) » .

إنه واجب المسلم نحو عقيدته أولاً ، فلا يضيره أن يقاتل خلف أيّ قائد مادام سبيل الله غايته ونصرة الإسلام قصده وتحقيق الحرية أمله .

ولذلك يبادر المسلم إلى نداء الجهاد ، ولا يركن إلى الدعة أو يجنح إلى السلامة ، وإلا غشيه الذل وضاعت الكرامة : « انفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجاهِدُوا بأَمْوَالِكُم وأَنْفُسِكُم فِي سَبِيلِ اللهِ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُم تَعْلَمُون (٣) » .

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والنسائي .

(٢) أبو داود .

(٣) سورة التوبة ٤١

وحين يتخلى المسلم عن الجهاد ويغفل عن العدو المتربص فإنه يخون أمانته وينقض عهده مع ربه ، وهو حينئذ ليس أهلاً لحمل رسالة الإسلام وأدائها للعالمين . .

« إلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَليماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً (١) » . .

والفترة التي عاشها المسلمون في حقيقة الجهاد ، وظلوا فيها على ولائهم للحق والحرية هي التي سعد فيها المجتمع الإسلامي بحريته وعزته ، والتي ضمنت الحرية أيضاً لكثير من الشعوب على مر التاريخ . .

فكان الجهاد خلقاً للمسلم يجعل الموت أَحبَّ إليه من الحياة ، وكان في ذلك سر الفتح وحقيقة النصر ، لاطمئنانهم إلى الهدف ويقينهم بالعاقبة ، وحبهم للشهادة في سبيل الله . . وكانت أعلى مرتبة يطمح إليها المؤمنون . .

قيل يا رسول الله : أي الناس أفضل ؟ قال : « مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله (٢) » .

---

(١) سورة التوبة ٣٩

(٢) أخرجه الخمسة .

باذل لعونه

لا يعيش المسلم مشغولا بذاته منعزلا عن الناس والحياة ، بل يمدّ يده بالخير والعون ويعطي الحياة ما يزيدها أمناً وسلاماً ، لأنه يفهم معنى الإنسانية ويدرك مسئوليات الأُخوة في المجتمع الذي يحيا فيه .

« وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ والعُدْوانِ واتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ (١) » .

وهو يعلم أن كيان المجتمع الإسلامي يقوم على أساس أن أفراده وحدة تتضامن في مواجهة الحياة وتتعاون في حمل أعبائها ويساند بعضهم بعضاً أمام الأزمات والخطوات . .

ولذلك يجعل الإسلام من المسلمين جسماً واحداً يشعر بشعور واحد ويقف في الحياة موقفاً متسانداً .

يقول الله سبحانه : « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَولِيَاءُ بَعْضٍ » (٢) . « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » (٣) .

---

(١) سورة المائدة ٢ (٢) سورة التوبة ٧١ (٣) سورة الحجرات ١٠

وهم لذلك شركاءُ في التبعــة ، لا يتصدعون ولا ينعزلون ولا يتخلى بعضهم عن بعض ، كما يقول الرسول صلوات الله عليه : « المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً (١) » .

وهو تجسيم معبر عن الحقيقة ، فإن متانة الرابطة بين المسلمين تجعل أَيديهم متعاونة ووجوهم متقابلة ، لا يرضى أَحدهم بخذلان أَخيه ، ولا تقر عينه بما يؤذيه بل يرضى له إلا ما يرضاه لنفسه . .

وذلك هو مغزى تشبيه العلاقة بين المسلمين بعلاقة أَعضاءِ الجسد بعضها ببعض ، في قول الرسول الكريم :

« مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأَعضاءِ بالسهر والحمى (٢) » .

وهذا أَقصى ما يبلغه مجتمع من الترابط والتساند ، بل هو أَمثل حد يمكن أَن تصل إليه الإنسانية في تكاتفها وتضامنها وتعاونها ، وهو مايصل إليه المسلم عن طريق العقيدة وعلى أَساس الأُخوة . .

---

(١) البخاري .
(٢) البخاري .

ولذلك فإن المسلم يلتزم بحقوق الأُخوة ، ويبذل من العون ما يستطيع بمقتضى قبوله لتلك العلاقة ، ويعلم أنها دين يحاسب عليه وأمانة لا بد من أدائها . .

وأمامه قول الرسول صلوات الله عليه :

« المسلم أخو المسلم .

لا يَظْلمه ولا يُسْلمه . .

ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته .

ومن فرَّج عن مسلم كربةً من كُرَب الدنيا فرج الله عنه بها كربةً من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة (١) » .

وهو يجد راحة نفسه في تفريج الكرب وتخفيف الضوائق ، وحل المشكلات ؛ وهو يعلم أنه يعمل بذلك لنفسه ويمهد لها ويخفف عنها في يوم الحساب . . .

أما ستر العورات ، فهو غاية رفيعة من غايات الإنسانية التي يصل إليها المسلم حين يأْلف طريق الخير وتسخو يداه ببذل العون وإشاعة المرحمة بين العِبَاد .

---

(١) البخاري وأبو داود .

وهو يعلم أَن ذلك محكُّ الإِيمان وموطن الصدق واليقين ، وهو المقياس الحق الذي لا يكذب ، حين يقوم على الإِيمان ويصْدر عن بواعثه :

« فَلا اقتحمَ العقَبةَ . وما أَدراكَ ما العقبةُ فكُّ رَقَبةٍ أَو إطعامٌ في يومٍ ذي مَسْغَبةٍ يتيماً ذا مَقْربة أَو مِسْكيناً ذا مَتْربةٍ ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وتَواصَوْا بالصَّبْر وَتَوَاصَوْا بالمَرْحَمَةِ أُولئكَ أَصحابُ االْمَيْمَنَةِ (١) » .

أَما الاشتغال بالشعائر أَو التظاهر بالتقوى ، مع الضنّ بالعون وحجب الخير عن الناس ، فهو دليل وهن الإِيمان وكذب الادعاءِ وضلال القصد ، مما يورد صاحبه الهلاك: « فويلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُراءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٢) » ء

وهكذا يضع المسلم غايات الإِسلام في مواضعها ، ويتجه إلى طريق الرحمة التي أَرادها الله لعباده ، وجعلها مسئولية من مسئوليات الإِيمان . .

إنه يرقُّ لآلام الناس ويبذل جهده في تخفيفها ،

---

(١) سورة البلد . (٢) سورة الماعون .

ولا يصم أذنه عن نداء الضعيف والمسكين وذي الحاجة . كما يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « الراحمون يرحمهم الله تعالى ! ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » (١) . .

أما الغليظ الجافي الذي لا يرحم الناس ولا يمدّ إليهم يداً ، فهو بعيد عن رحمة الله مطرود من ساحة غفرانه : « لا يرحم اللهُ من لا يرحم الناسَ » (٢) .

وصدق رسول الله : «لا تُنْزَعُ الرحمة إلا من شقي»(٣)

* * *

والمسلم يبذل عونه للناس في مراتبه القريبة والبعيدة ويبدأ منها بما بدأ الله به . .

فأولى الناس ببره وعونه ذوو رحمة وقرابته ، فهي أقرب العلائق وألزم الواجبات ، كما يقول الله سبحانه: « وآتِ ذا القُربى حقَهُ والمسكينَ وابنَ السبيلِ ولاَ تُبَذِّرْ تبذيراً (٤) » .

وصلة الرحم من أعظم القربات التي تعود على

(١) أبو داود الترمذي . (٢) الشيخان والترمذي .
(٣) أبو داود والترمذي . (٤) سورة الإسراء ٢٦ .

المسلم بالخير في دنياه وأخراه : « من سرَّه أن يُبْسط له في رزقه ويُنسأً له في أَثَره فليصِلْ رحمه (١) » .

وقد سأَل رجلٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله أَخبرني بعمل يدخلني الجنة . فقال له : « تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ، وتصل الرحم (٢) » .

وحق الجوار كذلك من الحقوق المؤكَّدة التي يوفي المسلم بعهودها ، فهو يحسن إلى جاره ويكفُّ عنه أذاه ، ويقف معه في الشدائد وينصره إن أَصابته مظَّلمة « والجار ذي القُرْبى والجار الجُنُبِ (٣) » وقد أَكد الرسول حق الجوار ولفت الأَنظار إلى حرمته : « مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أَنه سيورثه » (٤) .

ثم ينظر المسلم إلى الحياة كلها نظر الإحسان والرحمة ويؤكد في نفسه معاني الإنسانية التي لا تفرق بين إنسان وإنسان ، بل ولا بين إنسان وحيوان ، فالإيمان في حقيقته نَبْعٌ لايجف للخير والبر ، تصلح به الحياة ويستقيم به أَمر الإنسانية في كل زمان ومكان . .

(١) البخاري .
(٢) البخاري .
(٣) سورة النساء ٣٦
(٤) البخاري .

بعيـــد عن الحـــرام

يعلم المسلم أن للإيمان مظهران : فعل وترك ، وأن جوهر الدين يتمثل في أداء الفرائض واجتناب النواهي بل إنّ اتقاء المحارم أجْلَى مظهرٍ للعبادة وأقرب طريق إلى صدق الإيمان .

كما قال الرسول صلوات الله عليه : « اتقِ المحارمَ تكن اعبد الناس » .

« قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ ماحَرَّمَ رَبُّكُمْ عليكم أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ولا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاق نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وإِيَّاهُمْ ولا تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ولا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالحَقِّ ذٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون » (١) .

* * *

ومن هنا يحاذر المسلم أن يسخط ربه أو يتعدى حدوده أو ينتهك حرماته فيجانب المحرمات ، ويجعل بينه وبينها سداً منيعاً من الخشية والتقوى . .

---

(١) سورة الأنعام ١٥١

وهو إنْ فعل ذلك بإيمانه وتقواه واستقامته وهداه ، فإن حقائق الحياة تُثْبت صِدق نظرته وسلامة اتجاهه . .

فإن المحرمات تمثل مجال الخطر الذي يهدد الإنسانية، ويجلب لها الدمار . . هكذا أثبتت حقائق العلم والحياة .

ولهذا حرمه الله . . « ويحرِّم عليهم الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ والأَغْلاَلَ الَّتِي كَانتْ عَلَيْهِمْ » (١) .

ومن هنا يطمئن المسلم في سعيه ويصم أذنه عن صيحات الفساد والإلحاد . .

* * *

إن المسلم يعلم أنه ليس في شيء مما حرم الله خير . .

فإن الله سبحانه لم يحرم عليه إلا العدوان والفساد في الأرض ، وما يتلفه ويشقيه ويرده إلى أسفل سافلين .

وذلك ما يقطع به نظر العلم والعقل ، أما الجهالة واتباع الهوى فهي التي تغري الإنسان بانتهاك الحرمات ، وتزين له طريق الغواية . .

ونقطة الخلاف بين الإسلام وأعدائه في هــذا

---

(١) سورة الأعراف ١٥٧

العصر ، أنهم يريدون أن يستبيحوا المحرمات دون فهم ولا علم ، فيردّون الإنسان حيواناً لا حظر أمامه ولا قيد .

ولكن الإسلام يرى أن ذلك إفساد في الأرض ، وضياع للطمأنينة والسلام . .

وهم لا يستطيعون أن يثبتوا أن في شيء مما حرم الله خيراً للفرد أو للجماعة ولكنهم يهرفون بما لا يعرفون ، ويتسترون أمام كلمات جوفاء وشعارات براقة . .

وهم يُخْرجون المؤمنين بأننا نعيش في عصر العلم والمدنية ، وأن الحلال والحرام نظرة قديمة إلى الإنسانية ، وهم بهذا يجهلون ويخرجون عن حد الإنسانية ولا يعلمون أن الإنسان هو الإنسان في كل زمان ومكان .

فمن فجر تاريخ الإنسان وهو يرى مثلا أن الفاحشة خطيئة يستنكرها المجتمع ، لأنها تهدد أمنه بالاضطراب ويرى أن العلاقة المنظمة بين الرجل والمرأة هي الزواج ، وأن الأسرة هي الوضع الطبيعي الذي يستقر فيه الإنسان ويجد فيه طمأنينته وسلامه .

فإذا كانت تلك نظرة البشرية من قديم ، والتي سارت عليها الأجيال واستقرت في فطرة الإنسان ،

فما الذي طرأ على البشرية في هذا العصر حتى يريد المفسدون أن يشيعوا الفاحشة ، وأن يمهدوا لها الدعائم ، وأن يوهنوا نظام الأُسرة ويضعوا في طريقه الصعاب ؟

والمرأة التي كانت قبل الإسلام تألف التبرج والفاحشة ، فجاء الإسلام فصان كرامتها وأخذ بيدها إلى مستوى الإنسانية ، وحدد لها رسالة تقوم بها في الحياة . . فلماذا يريدون لها في هذا العصر أن تنتكس إلى الجاهلية شيئاً فشيئاً ، وأن تمتهن كرامتها وتكتسب بعرضها وتعيش على حساب أُنوثتها ؟!

وأي سند لهذا العبث من علم أو فكر ، وأي صلة له بالتقدم والحضارة ؟!

والخمر . . التي أثبت العلم أنها داءٌ مدمر وعدو مخيف . . ومن أجل هذا حرمها الله . . أي صلة لها بالحضارة والتقدم حتى تصبح طابعاً عصرياً للمدنية في هذا الزمان ؟!

* * *

إن الإنسانية توشك على الانزلاق في مهاوي الهلاك والهبوط إلى درجات الحيوانية ، وهي تسير وراء

المفسدين الذين يتملقون الغرائز ويسترضون الشهوات

فإن التحرج من المحرمات شارة من شارات النُّبل والارتفاع ، ودليل يقظة الضمير وكمال الوعي .

والذي لا يتحرج مما حرم الله عليه ، يسهل عليه الانفلات من كل قيد ، والهروب من كل تبعة ، والخيانة في كل عهد .

وعلة التحريم في كل ما حظره الإسلام جلية واضحة ، تستهدف خير الإنسانية وترعى نفع الإنسانية وليس سلباً لحرية الإنسان ولا إعناتاً له .

فكل مجالات الحياة فيها محرمات يمنع الفرد منها لصالح الجماعة . . في السياسة وفي الاقتصاد . . وفي الحرب . . وفي كل مجالات المعاملات والارتباطات .

إن الإنسانية لا يمكن أن تتقدم بغير ذلك . . فالفوضى والإباحية لا تتفق مع حضارة ولا تقدم . . ولا تصلح بها حياة ولا يطمئن معها مجتمع .

« واللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ

الشَّهَواتِ أنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً (١) » .

إن في المجتمعات الإسلامية المعاصرة قوى نشطة ، تعمل بخطط مرسومة وبرامج محددة ، لتغري المسلمين بالانفلات من دينهم وانتهاك حرماته ، حتى تبعد الشقة بينهم وبين صراطه المستقيم . . ومن المؤسف أن كثيراً من المسلمين يقعون فريسة لهذه القوى الهادمة ، التي تزين الباطل ، وتجعله جزءاً من الحياة ونظاماً من أنظمة المجتمع . . وذلك يلقي العبء على العلماء والدعاة أن يجعلوا الحقائق تتضح في أنفس الناس ، فيفهمون دينهم ويعقلون أهدافه ، ويحسون بالخطر الذي يتهدد أولاهم وأخراهم من هذا الفساد الذي ملأ شِعاب حياتهم

إن الباطل لا يعيش إلا في غيبة الحق .

أما حين ينتشر نور الحق وتعمُّ هدايته ، فإن الباطل سيفرّ بطبيعته ، لأن هذه سنة الحياة .

« وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً (٢) » .

---

(١) سورة النساء ٢٧

(٢) سورة الإسراء ٨١

خاتمة

تلك هي المقومات الأساسية للشخصية المسلمة .

عقيدة . . وعبادة . . وأخلاق .

والمسلم الذي تكونه هذه العناصر الفاضلة ، هو الفرد الصالح الذي يسعد به المجتمع ، ويؤدي دوره في الحياة .

أما الذي ينحرف عن دينه ويجهل مقوماته ، فهو خطر على نفسه وعلى المجتمع ، وهو عنصر هدام .

نعم . . فالإنسان حين يخلو من العقيدة الدافعة والمثل الموجهة ، والضوابط الخلقية . . يسهل عليه حينئذ خيانة كل عهد والانحراف عن كل خير .

ولكن المسلم الحق يسعد وطنه ويرقي أمته ، ويعمل من أجل الإنسانية .

وأعداؤنا في الشرق والغرب لم يغفلوا عن هذه الحقيقة ، فعملوا جاهدين على أن تموت في المسلمين حقائق الإسلام ، بالجهل ، أو بالفساد والانحراف .

فحين كانوا في بلادنا شوهوا تكوين الأُمة وحالوا ووضعوا بذور الفساد الخلقي ، وقرت أَعينهم حين وجدوا بذورهم تُنْبِتُ نَباتَها وتؤتي أُكُلهَا ، فتنشأ في أَقطار المسلمين أَجيال لا ترتبط بدينها ولا تأْوي إلى ظلاله ، بل تقف منه موقف الجهل والعداء .

ونحن حين نذكر ذلك نأْسف ونأْسى .

ولكن الأَسف لا يغني عن الواقع المرير شيئاً .

بل علينا الآن ونحن في مطلع نهضة إسلامية أَن نهدم الآثار المفسدة ونزيل الحواجز المصطنعة بين أُمتنا وبين الإِسلام . . فنتيح لها الفرصة لتعرف دينها على حقيقته ، ونحميها من المفسدين الذين نصبوا أَنفسهم موجِّهين بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

إن كثيراً من وسائل التوجيه في المجتمعات الإِسلامية لا ترعى للإِسلام حُرمة ولا تقيم لمبادئه وزناً ، بل إن منها من يبتغي سبيلا غير سبيله ويدعو إلى غاية تخالفه وتناقضه . ويرسم خططاً لنقض عراه وتوهين قوته .

إنها تدعو إلى التحرر . . من الدين والأَخلاق ، ومن الضوابط والحدود .

وذلك هدم . . لا بد أن يقابله بناء . .

وليس إلا التوجيه الراشد والتربية الإسلامية الصحيحة على أساس من الفهم والإخلاص .

إننا نريد أن يرعى الناس حقيقة الإنسانية ، فيفهموا الحقائق ، ويتحرروا من الأباطيل .

* * *

وأرجو أن يكون هذا العرض السريع لمقومات الشخصية المسلمة وعناصرها الحقيقية ، ما يثبت الإيمان في قلوب المسلمين ، وما يهيء الاحترام والتقدير لهذه الشخصية الكريمة في أنفس الهازئين والجاهلين .

ويقيننا أن الله سبحانه لن يخذل دينه ، ولن يخفض رايته ، ولن يذل أتباعه . فإن النصر دائماً للمؤمنين .

« إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الحياةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشهادُ (١) » ، صدق الله العظيم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

مصطفى عبد الواحد

(١) سورة غافر ٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

خاتمة الكتاب

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيد السادات وسر البركات وسبب الخيرات وعلى آله وأصحابه الى يوم الدين،

.... وبعد:

فقد تم طبع هذا الكتاب الذي اقتبس شعاع النور من معنى اسمه (شخصية المسلم كما يصورها القرآن) فما التزم مسلم بمعالم دينه وتمسك بالإسلام والإيمان وحافظ على أوامر ربه وابتعد عما نهى عنه إلا وعلت رتبته وشرُف قدره، واشتهرت عزيمته وانتشر نفعه بين العباد، وتجاذبت القلوب مودته عن الحاضر والباد، فيا له من كتاب صغُر حجمه وكثر نفعه، نسأل الله تعالى أن يثيب مؤلفه وناشره وكل من قام في تحقيقه وتحريره قاصداً وجه الله تعالى كل خير وبركة وتوفيق.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وتابعيه ليوم الدين. سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

خادم العلم

عبد الله بن ابراهيم الأنصاري

٢٩/٨/١٤٠١ هـ

١/٧/١٩٨١ م

فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

مقـدمة ... ... جـ – و
مقدمة الطبعة الثالثة ٣
تقديم ٥

الباب الاول : أساس البناء العقيدة :

العقيـدة ١٧
مؤمن بالله ٢١
مؤمن بالآخرة ٤٤
مصدق بحقائق الآخرة ٥٧
مؤمن بالقدر ٧٤
مصدق بالملائكة ٨٢
مؤمن بالرسل ٨٨

الباب الثاني : صلة المسلم بربه :

عابد لربه ١١٣
محب لربه يرجو رحمته ويخشى عذابه... ... ١٢٢
ذاكر لربه واقف بأبواب رحمته ١٣١
صاحب للقرآن ١٣٨

الموضوع ... الصفحة

صائم عن الدنايا ١٤٦

في بيت الله الحرام ١٥٥

في ماله حق معلوم ١٦٥

الباب الثالث : صلة المسلم بالناس والحياة :

صادق في قوله وعمله ١٨١

حافظ لأمانته ١٨٨

متسامح مع الخلق ١٩٤

صبور على الشدائد ٢٠١

عفيف قنوع ٢٠٧

مستزيد من المعرفة ٢١٤

قوي صحيح ٢٢٢

أبي كريم ٢٢٩

باذل لعونه ٢٣٨

بعيد عن الحرام ٢٤٤

خاتمـــة ٢٥١

خاتمة الكتاب ٢٥٤

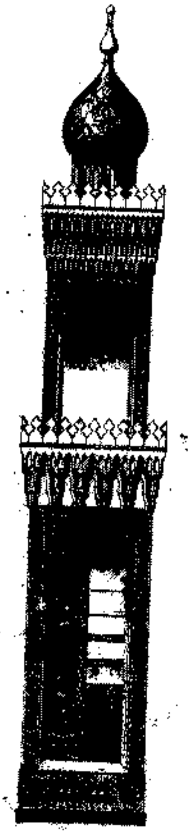

مطبع علی بن علی